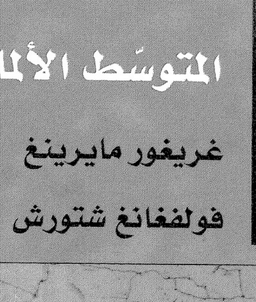
تصوّرات
البحر الأبيض المتوسط



المتوسّط الألماني

غريغور مايرينغ

فولفغانغ شتورش

THALASSA

منشورات
البحر الأبيض المتوسط

المتوسّط الألماني

غريغور مايرينغ

فولفغانغ شتورش

T H A L A S S A

تصورات البحر الأبيض المتوسط

برنامج أبحاث بإشراف البيت المتوسطي لعلوم الإنسان

منسق البرنامج : فرانسوا سيينو
سكرتيرة التحرير : جيزيل سايماندي
منسقة النسخة العربية : ماري تريز زهر

رعى البرنامج كل من :
الاتحاد الأوروبي
وزارة الخارجية الفرنسية
المؤسسة الأوروبية للثقافة
مؤسسة رينيه سايدو للعالم المتوسطي
منطقة بروفانس آلب كوت دازور
مقاطعة بوش دي رون

شكر خاص لمؤسسة الملك عبد العزيز في الدار البيضاء
وللجامعة اللبنانية في بيروت لاستقبالهما

الغلاف :
خارطة محمد الإدريسي وهو جغرافي عربي توفي سنة ١١٦٦ .

تم نشر هذه المجموعة أولا باللغة الفرنسية في
دار ميزونوف إي لاروز Maisonneuve & Larose
أما الترجمة إلى العربية فهي بالتعاون مع
مؤسسة كونراد أديناور وتحت إشرافها



تـــصـــوّرات
البـحر الأبـيـض المـتـوسط

باشراف تييري فابر، روبير إلبير، غريغور مايرينغ

المتوسّط الألماني

غريغور مايرينغ

فولفغانغ شتورش

T H A L A S S A

غريغور مايرينغ / فولفغانغ شتورش

المتوسط الألماني – بيروت : منشورات تالاسا ٢٠٠٣

Printed in Lebanon

DYNAMIC GRAPHIC
ISBN: 9953-422-40-0

غريغور مايرينغ

نشأة ذاكرة جمعية وتحوّلاتها : المتوسّط الألماني

ترجمه عن الفرنسية بسام حجّار

عـام ١٤٨٣، يصـل الأخ الـدومـيـنـيـكـاني، فـيـلـيكس فـابـري (Felix Fabri)، للمرّة الثـانية، إلى القدس. فإثر رحلة طويلة حملته من البندقية، عبر المتوسّط، يمتدح راهب مدينة «أولم» (Ulm) الإمبراطورية، في جنوب ألمانيا، البحرَ الذي أتاح له أن يُتمَّ مناسكَ حجّه.

«إنّ ما توفره الأسفار عبر هذا البحر للجنس البشري ليس بالكَسبِ الطفيف : إذ يُدرك أحياناً السمبريون الجرمان والسلتيون في المقـلب الآخـر مـن الأرض مَـنْ هـم الـعـرب والمصـريـون والفلسطينيون والسوريون ؛ ومـا هـو البـحـر الأحمر، والصحراء، والأرض المقدّسة، وسدوم واليهودية، وكيف تستوي غابات أهل سبأ بلهب الأبخرة. وبالمثلِ يتعرّف سكان هيرقانيه وتانيس إلى جـزر الـهـيسبيريـد الأطلسية ويتذوقون تفـاحـهـا الذهبـي، وبردَ الـهـيبيربوري والرُحّل السـارمـاتـي يسافران في بقـاعِ القيظ في أثـيـوبـيـا والـنيل وليبيا. وهـكذا يُزارُ الأسبـاني والمَوْري، ويكون باستطاعتهما أن يزورا، بدورهما، الفرس والهنود والقوقاز (...) وعندما يتبادلون الخيرات فيما بينـهـم، لا تذهـلـهم فقط عادات وشرائع وتقاليد الآخرين ؛ ويجون، فضلاً عن ذلك، إذ يرى أحدٌ إلى مقابله كأنه ينتمي إلى عالم غريب، وكأنه لا يقيم محاطاً بالمحيط نفسه، أن يُكيِّف سلوكه بحسبه ؛ فـيـثقُ أحدهـمـا بنتـاج الآخر، ويـغـدوان صديقين، ولأن كلاً منـهـمـا يتحدّث عن نفسه، يتعلّم الاثنان المجهول والغريب. فيحدث أنّ من كانا غريبين، من البُعدِ، أن يعيشا، بالملاحةِ ، متعاطفين. والحقّ أنه مَن كان ليحسبَ أن الأخ فيليكس فـابري سيصبـح رفيق الكفّار وصديق دار مَن لم يعتمدوا ؛ وأنّه قد يصفّق لتركي، كما قد يجلس جلسة أُنَسٍ مع مسلمٍ، صديقاً لتتري، مذعناً لعربٍ ومصريين ؛ ومَن كان ليحسب أنه سيلقـي سلامـه علـى محمّد وأنـه سيخشـى البرابرة ؟ كلُّ هـذا مصدره البحر الذي يجمع بينهم.» (١)

إنّ امتداح البحر من قبل فيليكس فـابري إنما هو لمحة خاطفة مـن تـاريـخ كـان يـربـط مـا بين شمـال أوروبـا، وبـالـتـالي البلدان

الألمانية أيضاً، وبين المتوسّط. إنه يصف حقبةً عاود فيها البحّارة والتجار والحجاج ركوب بحر الصليبيين. وبعد ذلك ببضع سنوات، سوف يُكتشف العالم الجديد وسوف تتجه أنظار التجار والمغامرين – ورجال الدين من الرهبانيات المختلفة – نحو المحيط. في نظر راهب أولم (Ulm)، كان العالم القديم ما زال موجوداً. إنّه يعجب، بالطبع، للغرائب التي يصادفها خلال أسفاره الطويلة، غير أن البحر ليس حدوداً من شأنها أن تفصل الشمال عن بلاد الإسلام على نحوٍ قاطع ؛ بل، على العكس من ذلك : إنه يسهّل التبادل. لذا لا نرى فيليكس فابري منشداً مرثاة لبحر متوسّط مفقود. ويبدو أن الوحدة التي يشير إليها ليست فقط بعداً في المجال، بل في الزمان أيضاً : فهو بعيد كلّ البعد عن الاعتقاد، على غرار فلاسفة التيار الكلاسيكي ومنظّريه الأخلاقيين في القرن الثامن عشر، بأن أهل الشمال هم الورثة الحقيقيون للعالم اليوناني الروماني المثالي، في حين أن مردّ وجود الإسلام فيه يعود إلى خطأ تاريخي. ذلك أن الراهب يحيا في زمن نهاية العالم ؛ والتقدّم والتخلف لم يغدوا بعدُ المنظورين اللذين يمليان إدراك الزمن المعاش. ليس هناك سوى زمن عالمي تنخرط فيه بلدان جنوب المتوسّط كما تنخرط فيه بلدان شماله.

خلال إعداده لإصدار الجزء الخامس من تاريخه الشامل، يكتب ليوبولد فون رانكه (Leopold von Ranke) من برلين، إلى ناشره كارل غايبل (Carl Geibel)، في الأول من تشرين الثاني / نوفمبر ١٨٨٤ ، ما يلي :

«أعتقد أننا نستطيع أن نعنونَ الجزء الجديد (إن لم تكن له رنّة شعبية مفرطة) : محمّد وشارلمان.»

ففيما كان رحّالة القرن الخامس عشر قادراً ببساطة على وصف حقيقته المعاشة، كان مؤرّخ القرن التاسع عشر يلقى صعوبةً في الإقناع بأنه من الممكن إدراج بروز الشعوب الجرمانية وتوسّع الإسلام معاً في تاريخ مجمل. يبدو رانكه متردّداً :

«قد يكفي جمهورنا أن يرى هاتين الشخصيّتين غير المتجانستين، في الحقيقة، في إطار علاقة فكرية.» [٢]

بالنسبة للأب المؤسّس للتاريخانية الألمانية، لم يدخل المتوسّط بعدُ في إطار عمل التأريخ : ذلكَ أن المعسكرَيْن قد قاما فعلاً من جهتيه، ولا يمكن أن تكون بينهما سوى صلةٍ فكرية. أمّا الفضل في إقامة صلاتٍ مادية فيعود إلى مؤرّخ يفوقه شجاعة، هو هنري بيرين (Henri Pirenne) الذي استعار عنوان فون رانكه نفسه. ففي «محمّد وشارلمان»، الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٩٢٢، يدرج بيرين المتوسّط في حقلِ عملِ المؤرخين [٣]. وكان آلفونس دويش (Alfons Dopsch)، قبل ذلك بقليل، قد تخلّى عن فكرة الأثر الكارثي للغزوات الجرمانية على وحدة المجال المتوسّطي [٤]. غير أن بيرين يتجاوز طروحاته بتحميله العرب مسؤولية تحطيم الوحدة القديمة متسببين، على هذا النحو، ببدء القرون الوسطى الأوروبية. وسوف يستعيد فرنان بروديل (Fernand Braudel) هذه الأطروحة نفسها في «المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني»، ولكن على نحوٍ مختلف. ذلك أنّ ما يصنع التاريخ ليس شخصيات التاريخ البارزة ولا الغزوات ولا هجرات الشعوب الجرمانية أو العربية، بل إنّ البحر نفسه هو، في رأيه، فاعل التاريخ ولم يكفّ يوماً عن أداء دوره هذا.

من الأنوار إلى أركاديا

مع ذلك لم يختفِ يوماً الخطاب عن المتوسط في الخارطة الفكرية الألمانية. حتّى تردّد رانكه حيال ما سيكتبه فيما بعد المؤرخون الفرنكوفونيون، قد يصنّف في إطار تيار فكري أسهم، منذ القرن الثامن عشر، في بروز مثالٍ متوسّطي سوف يُرقّى، في آخر الأمر، إلى الأساسِ بالذات من كلّ تاريخ ثقافي. طبعاً كانت هناك انقطاعات في إدراك المتوسّط في البلدان الألمانية ؛ فبحسب راهبنا، في القرن الخامس عشر، المتوسّط ليس مجرّد واقعٍ اجتماعي، بل هو يُدْرَكُ على أنه كذلك. وعندما سعى الموسوعيون

الألمان الأوائل إلى تقنين المعرفة المعاصرة، لوحظَ أن الأمر كان أشبه بمعاودة اكتشافٍ بطيئة، فقد غدا المتوسّط موضوع بحث ينبغي بناؤه. ويبقى عصر الأنوار، أكثر من فيليكس فابري، متشبثاً بمعاني الكتاب المقدّس. ففي المجلّد العشرين الصادر عام ١٧٣٩، تعرّف موسوعة تسدلر (Zedler) المتوسّط على أنه البحر الكبير الذي تطلق عليه، بحسب البلدان المحاذية له، أسماء مختلفة ؛ وهو «البحر الذي عبره نقل سليمان كلّ المواد التي كان يحتاج إليها لبناء هيكله».

طبعاً، ما عاد المؤلفون يشاطرون الأجيال السابقة ذاكرةً ثقافية «حارّة»؛ فبدل الحجاج والتجار الأوروبيين كان، بخاصّة «تجار صور وصيدون هم الذين يقومون بالتجارة عبر هذا البحر» [٥].

أمّا المقاربة المنهجية، التي تضمنها المجلّد الواحد والعشرون، فقد أعطت مدخلاً آخر يبدأ بتعداد جغرافي لكلّ البلدان المحاذية :

> «يبدأ هذا البحر قرب أسبانيا أو مضيق جبل طارق، بقرب أعمدة هرقل، ويمتدّ من المساء إلى الصباح، حتّى مملكة سوريا، عبر ألف فرسخ أو أزيَد. ضفافه تحاذي الممالك التالية : لجهة اليد اليمنى، في إفريقيا هناك كلّ من موريتانيا، أو بلاد البربر، قبالة أسبانيا وفرنسا؛ ومملكة قرطاجه، وتسمّى اليوم تونس، قبالة إيطاليا ؛ ومصر، قبالة آسيا الصغرى. ولجهة اليد اليسرى، هناك في أوروبا كلّ من أسبانيا وفرنسا وإيطاليا، ودَلماتيا واليونان ؛ وفي آسيا، آسيا الصغرى، وسوريا وفينيقيا وأرض الميعاد.»

التشديد هنا على طابع التمييز : Mittelländische Meer (...) « - Mare Nostrum , Mare mediterraneum هكذا يسمّى البحر الذي يفصل ما بين أوروبا وآسيا وإفريقيا [٦]».

كانت الكتب التعريفية الأولى عن المتوسّط حاملةً تقليدٍ إنساني يرى في العصور اليونانية اللاتينية القديمة وسيلةَ نقل لتنشئةٍ

أخلاقية. وكان أوّل من أقامَ الدراسات الميدانية هو يوهان يواكيم فينكلمان Johann Joachim Winckelmann (١٧١٧–١٧٦٨) الذي سافر عام ١٧٥٥ إلى روما. ذلك أنه يرى أنّ دراسة ثقافة العصور القديمة لا تتمّ فقط من خلال المصادر المدوّنة والمتوافرة في كلّ مكان بفضل فن الطباعة، بل ينبغي أن تجرى في مواجهة مباشرة مع آثار الصروح. وفي كتابه «تاريخ فنّ العصور القديمة»، الصادر عام ١٧٦٤، يثمّن فينكلمان عالياً التجربة الخاصّة بالمراقب ويحيل قراءة المصنّفات حول الآثار إلى المرتبة الثانية [٧]. وإلى ذلك، يتخطّى تاريخ الفنانين، أي نزعة تدوين السيرة، لكي يتوصّل إلى تاريخ الأساليب ؛ إنّ مربّع الثقافة القديمة يشمل روما واليونان ومصر وأترووريا، وكلّها شاهدة على صيغة : «بساطة نبيلة وعظمة صامتة» («edle Einfalt und stille Grösse»). إنّ عقيدة المذهب الكلاسيكي تقول، طبعاً، إنّ العصور القديمة لها أولوية مطلقة على كلّ فن آخر. غير أن هذا ليس مجرّد حكم قيمةٍ تاريخي. بل هو أيضاً شروعٌ في سيرورة التنشئة (Bildung) من الجنوب : ذلك أن لمفهوم ثقافة العصور القديمة بعداً أخلاقياً وسوف يخلّف تأثيراً هائلاً على الأجيال اللاحقة. حتّى لو كانت روما هي نقطة الانطلاق، فإنّ اعتبار اليونان أعظم ؛ وقيمتها لا يمكن أن يساء تقديرها، لكنّها ببساطة أصعب منالاً. وسيعمد يوهان غوتفريد فون هردر Johann Gottfried von Herder (١٧٤٤ – ١٨٠٣)، بعد ذلكَ بجيل، إلى التشديد على أولوية اليونان، وسوف يكسر المربّع الكلاسيكي الذي يقيس كلّ فنّ على فنّ اليونان. فغرضه أن يدرجَ الأهمية التي تعطى للفنّ في إطار اجتماعي وتاريخي، ويقترح أن تعامل كلّ ثقافة بصفتها المستقلّة، ويصرف النظر عن النموذج اليوناني. ومع ذلك فإنّ الطابع الأخلاقي يبقى مرتبطاً باليونان. في القسم الثاني من مؤلّفه «أفكار حول تاريخ البشرية»، الصادر عام ١٧٨٥، يعيّن موضع المثال :

«أخيراً، وعلى سواحل البحر المتوسّطي وجدَ الجنس البشري مكاناً استطاع فيه أن يرتبط بالروح وأن يصبح مرئياً، في كلّ

الفِتَن الأرضية والسماوية، ليس فقط للعين بل للنفس أيضاً. إنّها اليونان المثلّثة في آسيا وفي الجزر، في اليونان بالذات كما على سواحل البلدان الغربية الأخرى نسائم رقيقة كانت تهبّ على النبتة التي نقل غرسها، شيئاً فشيئاً، من أعالي آسيا ونفِخَت فيها الحياة : الزمان والقَدَرُ ضخّا فيها النسغ ومنحا النبتة التاجَ الذي ينظر إليه ببهجةٍ كلّ منا دائماً بذهولٍ في مثاليات الفن والحكمة اليونانيين. هنا صمّمت وأبدعت الأشكال التي ما كان ليتصوّرها لا هاوي الحسان الشركسيات ولا الفنان القادم من الهند أو من كشمير. لقد دخل الإنسان الأولمبَ واكتسى بحُسنٍ إلهي.» (٨)

لمّا كان أهل الشمال راغبين في بلوغ هذا المثال، عملوا على الفوز به. ولن يمضي وقت طويل حتّى راح الإنتاج الأدبي يكتسي بحللٍ جنوبية. وكان فريدريش هولدرلن Friedrich Hölderlin (١٧٧٠ – ١٨٤٣)، المبادر، غداةَ الثورة الفرنسية، إلى تضمين روايته «هيبيريون» (Hyperion)، الصادرة عام ١٧٩٧ – ١٧٩٩ ، خطاباً فلسفياً حول المجتمع المعاصر الألماني تحت ظاهرٍ يوناني – وهو لم يرَ اليونان من قبل. فهو، نفسه، استلهمَ سردَين من أدب الرحلات، «Voyage pittoresque de la Grèce» (رحلة اليونان المثيرة) للكونت دوشوازولغوفييه Comte de Choiseul-Gouffier (الصادر في الألمانية عام ١٧٨٠، أي قبل سنتين من صدور نسخته الفرنسية) و«Travels in Asia Minor and Greece» (رحلات في آسيا الصغرى واليونان) لريتشارد تشاندلرز Richard Chandlers (١٧٧٥/١٧٧٦ ، ترجم إلى الألمانية بين عامي ١٧٧٦/١٧٧٧)، ليصبح هولدرلن بذلك رائد تيّار محبّي الهلّينية ؛ وعندما رويت له، فيما بعد، تفاصيل صراع اليونانيين ضدّ الباب العالي عام ١٨٢٣، كان فاقداً قواه العقلية. الحماسة متقدّة لا حدود لانتشارها. وربّما كان المصنّف الصغير الذي ألفه فيلهلم فون هومبولت Wilhelm von Humboldt بعنوان : «عن شخصيّة اليونانيين، في الطابع التاريخي والمثالي» الصادر عام ١٨٠٧، هو الذي يمثّل ذروة هذه الحماسة.

«ليس اليونانيون في نظرنا مجرّد شعب، من المفيد أن نعرفه تاريخياً، وإنما هم مثال. وبعبارة أوضح أقول: إنهم في نظرنا ما كانته آلهتهم في نظرهم.»

إنّ الابداع المعاصر لا يمكن أن يقارن بعبقرية القدماء:

«ما من شيء حديث يمكن أن يوضع على سويّةِ القديم. ذلك أن نفحة القديم، التي يخلو منها الحديث بالضرورة، هي الروح التي ليست خاصة بمؤلفِ عملٍ ما بل الروح التي هي ملك الأمّة بأسرها والعصر بمجمله. (...) ما يميّز العصور القديمة ليس الفرادة بل تفوّقها الحقّ ذو القيمة الجامعة.» [٩]

يرى هومبولت أن معنى العصور القديمة هو حجر الزاوية للأمم الحديثة التي كانت لتخطىء، وهي مخطئة، إذا كنّت المقدار نفسه من الاحترام للرومان واليونانيين.

إنّ هذه المقاربات الأولى للمتوسّط تعكس، بمجملها، ميلاً إكزوتيكياً ما. ولكن على الضدّ من الأعمال الروائية التي ستجعل أحداثها تجري على جزر شبيهةٍ كلّها بجزيرة روبنسون، فإنّ المتخيّل الكلاسيكي والرومنطيقي سينمّي اليقين بأن الوطن الروحي ليس موجوداً فقط في الخيال المحض. في البداية لم يكن هذا الوطن ليحتمل التعيين؛ وعندما سمّيَ أركاديا، لم يلبث أن جعلَ موقعه في المتوسّط. ومن يربط هذه الرحلة الباطنية بالانتقالِ الخارجي هو بالذات يوهان فولفغانغ فون غوته. إذ كان لكتابه «الرحلة الإيطالية»، الصادر أولاً عام ١٨١٦/١٨١٧، بعنوانٍ مختلف، تأثير كبير على الألمان [١٠]. ولطالما اعتبرته الأجيال دليلاً لاكتشافاتها الخاصّة في البلاد التي «يبرعم فيها الليمون الحامض». ويمكن القول إنّ مع غوته وضِعَت علامات الطريق التي تفضي إلى أركاديا؛ وكلّها تنعطف باتجاه المتوسّط. كان والده قد قام، قبلاً، برحلةٍ إلى إيطاليا، عام ١٧٤٠، غير أن غوته لم يكن يتبع تقليداً عائلياً أو يشبع رغبة سياحية ألحت عليه، عندما وصل إلى إيطاليا في تشرين الأول / أكتوبر ١٧٨٦، ليبقى فيها نحو

عامين. ما كان يصبو غوته إليه هو تنشئة الذات. و «إني لفي أركاديا» (Et in Arcadia ego) العبارة التي جعلها مفتتح كتابه «الرحلة الإيطالية»، تؤكّد أنه وجدها. ففي السابق كان لهذه الكلمة معنى آخر شديد الاختلاف. فهو يتصل أولاً بتصورات الموت ويعني أنّ الموت ماثل حتّى في لحظات الغبطة. ولكن، في سياق تبدّل عميق شهده القرن الثامن عشر، باتت الكلمة تعني، في ألمانيا، المؤلّف بوصفه منتمياً إلى أولئك الذين عاشوا في الجنوب. وإذا استخدمت، فيما بعد، بما يدلّ على الموت، فهي تعني، إذ ذاك، أن الجميع، بمن فيهم الموتى، ينعمون بلحظات غبطة. فبالنسبة إلى أحياء الشمال، إنها دعوة لأن يسلكوا الدروب المتجهة نحو الجنوب بضيائه ولطف مناخه وحسّ الجمال فيه.

يرى غوته أن بلدان الجنوب – التي كانت في السابق موجودة في الخيال، والتي تنبثق، في الحقيقة، من المتوسّط – تمثّل لدى أهل الشمال، وعلى نحوٍ لا شفاء منه، تنشئةً أخلاقية ما. غير أن حماسته للعالم الذي ينفصل تدريجاً عن المرايا المجرّدة للعلماء لكي يظهر محسوساً أمام أنظار المسافر المراقب، كانت أحياناً تشوّش إدراكه للإيقاع المتوسطي. وعندما وصل، أخيراً، إلى صقلية، زار غوته كالتانيسيتا في ٢٨ نيسان / ابريل ١٧٨٧. وبعد أن تدبّر سكناً له، راح يجوب أنحاء المدينة برفقة رجلٍ عجوز كدليل. وعندما وصل إلى السوق حيث أهل المكانة من السكان يجلسون «على الطريقة القديمة»، جاراهم غوته في تبادل أطراف الكلام :

> «كان ينبغي لنا أن نتحدّث عن فردريش الثاني، وكان اهتمامهم بهذا الملك العظيم بيّناً بحيث أننا أخفينا عنهم موته لكي لا نجرّ على أنفسنا كراهةَ مضيفينا جرّاء نبأ مشؤوم كهذا.» [١١]

كان الرحالة الألماني الشهير يتحدّث عن فردريش الثاني ملك بروسيا، فيما كان الأعيان الصقليون يتحدّثون عن فردريش الثاني، سيّد هوهنشتاوفن، المتوفي عام ١٢٥٠.

لا ينبغي لهذه الدعابة، أن تقلّل، بأية حال، من محاولة غوته تعيين موضع أركاديا في المتوسّط. وإنما هي تعبّر عن أشكال سوء الفهم التي تعرّض لها مستكشف ربّما كان لا يزال جاهلاً بالحدود الدقيقة لاكتشافه. كما سيحاول غوته فيما بعد، وهو صاحب الروحية المنفتحة، أن يدرج الشرق في سياق رؤيته ؛ ويوجّه اهتمامه شطر الأدبين العربي، والفارسي على نحوٍ خاص، اللذين جعلتهما جهود المستشرقين آنذاك في المتناول تباعاً. وإذا كانت إيطاليا هي مقصد رحلة غوته الشاب، فإن الشرق سيكون، في شيخوخته، وجهة هروبه : «فلتهاجر إذن إلى الشرق الطاهر الصافي، كي تستروح جوَّ الهداةِ والمرسلين»، يقول في القصيدة الأولى من «الديوان الشرقي للمؤلّف الغربي» الصادر عام ١٨١٩، وهي بعنوان «هجرة». الهروب الإيكزوتيكي، هجرة غوته، لا تتمّ إلاّ عبر المتوسّط :

«إنّ الشرقَ اجتاز
البحر المتوسط اجتيازاً باهراً مجيداً ؛
ومن يعرف حافظاً ويحبّه
هو وحده الذي يدرك ما تغنّى به كالدرون» (١٢)

بمضيّ أقلّ من قرنٍ من الزمن، على أعمالِ الموسوعيين الألمان، عُيّنَ موقع أركاديا في المتوسّط.

كان أوّل من توصّل إلى خلاصة تركيبية، في سياق فلسفة كبرى للتاريخ، هو غيورغ فيلهلم فردريش هيغل Georg Wilhelm Friedrich Hegel (١٧٧٠–١٨٣١). معتبراً أن تاريخ الروح ينبغي أن يكون له أساس جغرافي، يصف هيغل في «محاضراتٍ حول تاريخ الفلسفة»، في العشرينات، الأسس الجغرافية للتاريخ انطلاقاً من المتوسّط :

«أما العالم القديم الذي يقابل أميركا ويفصله المحيط الأطلنطي عنها، فإنّ اتصاله ينقطع بواسطة خليج داخلي عميق

هو البحر الأبيض المتوسّط. وترتبط القارات الثلاث التي يتألف منها هذا العالم، فيما بينها، بعلاقة جوهرية – ويشكل شمولها كلاً واحداً. والسمة المميّزة لهذه القارات هي أنها تقع حول هذا البحر، وبالتالي فلديها وسيلة سهلة للاتصال. ذلك لأن الأنهار والبحار ينبغي ألاّ يُنظَرَ إليها على أنها أداة فصل وتفرقة، وإنما أداة ربط وتوحيد. (...) وبالمثل فإنّ البحر الأبيض المتوسّط كان عنصر ربط دائم، ومركزاً لتاريخ العالم، بالنسبة إلى ثلاثة أرباع الكرة الأرضية.»

طبعاً، لا ينسى هيغل أن يمتدح اليونان، «منارة التاريخ»، بيدَ أنه يتجاوز صفةَ التفرّد الحصريّ التي أسبغها عليها الآخرون :

«وبدون المتوسط ما كان يمكن تصور تاريخ للعالم، ولكان تاريخ كهذا أشبه بروما أو أثينا في العصور القديمة بدون الساحة العامّة، التي كانت تتجمع فيها حياة المدينة بأسرها.» (١٣)

في فقرة أخرى من «فلسفة الروح»، يؤكّد هيغل هذه الوحدة ولكن في معرض إلحاق المتوسّط بأوروبا :

«هذه القارات الثلاث ليست منفصلةً عن بعضها البعض بسبب المتوسّط الذي تحاذيه جميعها، بل هي مرتبطة ببعضها البعض. فإفريقيا الشمالية باتت تنتمي، حتّى أطراف صحراء الرمل، وبسببٍ من طابعها، إلى أوروبا ؛ وسكان هذه الناحية من إفريقيا ليسوا بعد أفارقةً بحقّ، أي زنوجاً، بل ينتسبون إلى أوروبا. وكذلك الأمر بالنسبة لآسيا القبُلية فهي تنتمي إلى أوروبا بسببٍ من طابعها ؛ ذلك أن العرق الآسيوي الحقّ، العرق المنغولي، يقطن آسيا الشرقية.» (١٤)

إنّ الخلاصة الفلسفية الأولى حول وحدة المتوسّط تؤكّد أنه بإمكان أوروبا أن تتملّك البحر.

نزعة انتقائية واكتشافات

مع ذلك، فإنّ كلّ ما هو موجود في المتوسّط لا ينتمي بالضرورة إلى أركاديا. فشعار «البحث روحياً عن بلاد اليونان» –

غالباً ما يحول دون إخضاع المتوسّط لتحليل مراقب أقلّ انحيازاً. حتّى في الأماكن التي نزورها، نكتشف، بهذا المعنى، ما سبق وعرفناه عنها خصوصاً. وقد يكون لافتاً أن غوته أيضاً كانت له رؤيته الانتقائية للجنوب. كان شديد الحماسة لإيطاليا – وبعد ذلك بزمن طويل – أبدى اهتماماً وحماسة للأدب الفارسي، خصوصاً، في حين بقي اهتمامه بالنواحي الأخرى محدوداً. مصر القديمة التي كانت، برغم غلبة النموذج اليوناني، جزءاً من المربّع الكلاسيكي الذي تحدّث عنه فينكلمان، بقيت، عملياً، غائبة. ففي حين كان فينكلمان يحاول، في الأقلّ، الربط بين مصر واليونان، بدا غوته، بتأثير من مقاربة هردر الذي كان يفترض استقلاليةً ما للثقافات المختلفة، وكأنّه يعفي نفسه من الالتفات إلى مصر. فبلاد الفراعنة لم ينظَر إليها بوصفها جزءاً مكمّلاً لتنشئة ما. وهو يرى أن العصور المصرية القديمة ليست، حرفياً، سوى غرائبَ مثيرة للفضول :

«(...) إنه لمن المستحبّ أن يعتاد المرء بنفسه هذه الغرائب المثيرة للفضول ؛ ومع ذلك فإنها لن تكون أبداً مفيدة لتنشئة أخلاقية وجمالية.»

وعندما يقف غوته أمام تيشباين (Tischbein)، في روما، ليرسمه، تصوّره المسوّدات الأولى مستلقياً أمام خلفية من المسلاّت. غير أن اللوحة النهائية سوف تستبدل العناصر المصرية بكتلٍ لونية فتمحو منها، إذاً، كلّ بعدٍ فرعوني . ذلك أن وطأة «امبراطورية الموت المحزونة» تلك، والتي هي مصر، تجثم بثقلها على الرغبة في الحياة [١٥]. ولم تخفَ انتقائية غوته في تحديده معيار الأخلاق على المستشرق فريدريش روكرت (Friedrich Rückert) الذي سخر من محاولاته لتمثّل الآداب الشرقية كهاوٍ :

«لمّا استنفدَ المتعة لجهة الغرب
التفتَ إلى سلافة الشرق.» [١٦]

هكذا نجد في المتوسّط ما يلبّي، خاصةً، توقّعات كلّ واحدٍ منّا. ومثل هذا ينطبق أيضاً على فرديناند غريغوروفيوس (Ferdinand Gregorovius) الذي سيصدر بين ١٨٥٦ و ١٨٧٧، لدى بروكهاوس (Brockhaus) في لايبزج (Leipzig) عدة مجلدات في وصف الأماكن الإيطالية وفي أدب الرحلات. وفي عام ١٨٦٣ سوف يصدر غريغوروفيوس مجلداً بعنوان : سنوات الرحلة إلى إيطاليا، سرعان ما سيغدو عملاً مستقلاً عن مؤلفه، وستتخذه أجيال بأكملها كمرشدٍ لاكتشافاتها الخاصّة في إيطاليا. البحر ماثل فيه حتّى الطغيان ويمتدَح مراراً ؛ إنّه يستخدم أيضاً كوسيلة لمعرفة الذات. ففي المتوسط يتعرّف غريغوروفيوس على شاطىء بحر البلطيق في موطنه. وفي «لوحاتٍ غَزَلية للضفّة اللاتينية» الصادر عام ١٨٥٤، ينصرف إلى التأمّل على شواطىء أنزيو

«الأنيقة مثل شاطىء البلطيق في بلادي ؛ وحتّى لو كانت تفوقه جمالاً بما لا يقاس، ورملها أنعم، فهي تشبهه أحياناً، حتّى أني صحتُ مراراً : هذه هي نوكوهرين ذاتها، وهذه هي فانغن وساسّو ! إنّ الساحل البلطيقي والساحل اللاتيني يسلكان أحدهما حيال الآخر مثل أنشودة شعبية جميلة مبهجة حيال غَزَليةٍ كلاسيكية لتيوقريطس.» (١٧)

بمثل هذه الروحية، استطاع هاينريش شليمان (١٨٢٢–١٨٩٠، Heinrich Schliemann) أن يحوّل اهتماماته الكلاسيكية إلى مهمّة أركيولوجية. كانت تستبدّ به فكرة أن أركاديا – في العصور القديمة على الأقلّ – لا يمكن أن تكون مجرّد طيفٍ، لذلك ارتحل سعياً للقائها حقيقةً وليس فقط للقاء بلاد الهلّينيين روحياً. في الرابعة والأربعين من عمره، سيتابع شليمان – الذي كان في الأصل تاجراً – دروساً في الأركيولوجيا في باريس لكي يزاول أخيراً هذه المهنة، بنفسه، في اليونان وفي آسيا الصغرى، وخاصة بين ١٨٧٠ و١٨٨٢ ثمّ عام ١٨٩٠ ليكتشف طروادة. فهو الذي حصّل ثقافةً وفق التقليد الإنسانوي الألماني، استلهم هوميروس على نحوٍ غير مسبوق. ذلك أن الشعر اليوناني لا يقتصر

على قيمته الأخلاقية، بل يصلح، حرفياً، لأن يكون مرشداً لمن يرغب في أن يؤخذ على محمل الجدّ. إنّ اكتشاف صروح الماضي المخفية من خلال الاستعانة بأساطير القدماء والأعمال الأدبية الكلاسيكية هو البرهان الضروري لتبرير القول بأنّ الجنوب هو أيضاً مدرسة للتنشئة الأخلاقية.

ما دام الأمر يتعلّق بالعمل على نبش صروح الزمن الماضي، فإنّ الاكتشاف يتطابق مع الحلم، حتّى لو كان كنز بريام هو ملك لبطل آخر. بيد أن الاكتشافات تفضي أيضاً إلى خيباتٍ وخاصّة لدى أولئك الذين كانوا يعتقدون أنهم وجدوا ليس فقط صروح العصور القديمة بل أيضاً الآثار الإنسانية للأزمنة المفقودة. لم يكن اللورد بايرون هو الوحيد الذي لاحظ أننا في اليونان بدل العثور على الهليّنيين نعثر على أتراك يحسبون أنفسهم إيطاليين ؛ ويعجب محبّو الهلّينية من أنّ مُثُلَهم العليا يعتبرون أنفسهم روميين. إلى يعقوب فالميراير Jakob Fallmerayer (١٧٩٠-١٨٦١)، وهو مدرّس في ثانوية بافارية، يعود الفضل في تقويض الصورة التي كوّنها معاصروه عن اليونان، وفي كونه استبدل المرآة بنظرة. فسوف يلتفت فالميراير أولاً، وهو الذي ترعرع على «أرقّ ذكريات» اليونان العبقرية، إلى مصر، ولكن سينكبّ خاصة على تاريخ اليونان في القرون الوسطى [١٨]. وفي عام ١٨٢٧، يصدر عملاً حول إمبراطورية طرابزون، قبل أن يصدر، بعد ذلك بثلاثة أعوام، «تاريخ شبه جزيرة موره في القرون الوسطى» الذي سيصدم القرّاء برؤيته «لأرض اليونان الجديدة» المجرّدة من أي نزعة رومنطيقية. ذلك أن سمة العصر هي الحماسة التي تحيي بها أوروبا نجاح القضية اليونانية إزاء الإمبراطورية العثمانية. فبعد أن تجاوز فالميراير خيبة أمله الخاصّة، بدا له أن أصدقاء اليونان الفعليين يجب أن يقرّوا أولاً بالخطأ المتمثّل بالإصرار على أن ينسب لليونانيين المعاصرين تحدّرٌ متصلٌ من سلالة الهلينيين القدماء. ففي مبحثه «الاتصال والانقطاع في التاريخ»، يدافع عن عمله حول الموره ويؤيّد الأطروحة التي تقول إنّ السكان المعاصرين، وعلى الضدّ مما

يعتقده الرأي العام الأوروبي، لا صلة لهم بالهلّينيين القدماء :

«أنّ الجنس الهلّيني قد انقرض في أوروبا. جمال الجسد، وتوقّد الذهن، والتناسق والبساطة في التقاليد، الفنّ، ميادين السباق، المدن، القرى، أبّهة الأعمدة والهياكل، حتّى الاسم زال عن وجه القارة اليونانية.»

وقادته أسفاره إلى التأكيد «بأنّ ما من نقطة دماء هلّينية واحدة، حقيقية، نقية تجري في عروق السكان المسيحيين لليونان المعاصرة» [١٩].

لقد أخطأت حماسة القدماء اليونانية في الطابع القديم وفي العنصر القومي الحقّ الذي بفضله «قاوموا لقرون من الزمن الأثر المخرّب للمحمّدية». ويعود الفضل في نجاح اليونانيين في الانفصال عن العثمانيين، إلى الكنيسة اليونانية :

«لا الدم ولا الذاكرة ولا الفن ولا المعابد كانت تشكّل عنصر البقاء، بل الطقس المشترك، والمجامع المسكونية السبعة، والانتصار على سلالة محاربي الأيقونات، الإمبراطور الإله وبطريرك إستانبول ورهبانه وسلكه الكهنوتي، هي التي شكّلت عنصر البقاء وما زالت.»

وختاماً يؤكّد فالميراير :

«لو أنّ السلاطين سلكوا مع العرش أيضاً بحسب عقيدة أسرتي كومنينس وباليولوغس، لأمكن إصلاح الحال بهجرة الشعوب، ولما قام العصيان مطلقاً في اليونان. ولكان الأتراك أصبحوا هلّينيين في أعيننا، على غرار البلغار والألبان من قبلهم ؛ ولكانت بين إمبراطورية الأتراك المسيحية الهلّينية هذه وبين الغرب المسيحي اللاتيني هوة من العداء بمثل عمق وامتناع ودوام الهوّة التي تفصل بين عقيدتي روما ومكّة.» [٢٠]

يعترف فالميراير، من دون أن يجعلَ من ذلك نظرية، ومتخذاً مثال اليونان وشبه جزيرة أوروبا الجنوبية الشرقية، بتاريخية

الشعوب في المتوسّط ويحرّر الألمان من «ذلك التأليه الخاطىء لليونانيين القدماء الذي أرهقنا به علماء اللغة بشكلٍ مصطنع»، لكي يستعيد المحصّلة التي سيقدّمها أحد الجغرافيين فيما بعد [٢١].

محصّلات

ليس القرن التاسع عشر قرن علماء الآثار والمؤرخين وحسب. إنه أيضاً قرن علماء المحيطات والجغرافيين. فكلّما كانوا يواصلون أبحاثهم، اتضح أن وحدة المجال المتوسطي تفرض نفسها. تلك هي رسالة ك. بوتغر (C. Böttger) في كتابه «المتوسّط» الذي يعالج طوبوغرافيا ما تحت البحار، والمياه والمناخ في المتوسّط [٢٢]. بيد أن إسهام علماء المحيطات الألمان يبقى محدوداً، وذلك لأنّ ألمانيا لا تمتلك قواعد بحرية في المتوسّط. لذا، من الواضح أنه جرى التوجّه للاطلاع على الأبحاث المتقدّمة التي أجرتها بريطانيا العظمى، وبوتغر نفسه يشير إلى أنه يدين بالكثير لكتاب وليم هنري سميث (William Henry Smith) المعنون : «The Mediterranean. A Memoir Physical Historical and Nautical» (المتوسّط. تقرير طبيعي وتاريخي وبحري) الصادر في لندن عام ١٨٥٤.

في المقابل، سيعمل الجغرافيون، وخاصة تيوبالد فيشر (Theobald Fischer) وألفرد فيليبسون (Alfred Philippson)، على تطوير مشروع بحثٍ على قدرٍ كبير من الأهمية. سيتابع فيشر (١٨٤٦–١٩١٠) دراسته في التاريخ في هايدلبرغ وهاله وبون، في حقبة لم تكن فيها الدراسة الجغرافية قد ترسّخت بعد كميدان مستقلّ للدراسة الجامعية في ألمانيا. وفي العام ١٨٦٨، ينجز أطروحة جامعية حول موضوع تاريخي بعيد عن أي صلة بالمتوسّط، ثمّ يعيّن مدرّساً ويسافر عبر أوروبا حيث يكتشف أوروبا الجنوبية. بعد ذلك بثماني سنوات يعود فيشر، الذي درس الجغرافيا على نفسه، إلى ألمانيا لينجز أطروحة لنيل درجة

دكتوراه دولة، في بون، حول الجغرافيا الطبيعية لبلدان المتوسّط، متخذاً من صقلية نموذجاً. وإذ يصبح أحد الأساتذة الأوائل لمادة الجغرافيا في ألمانيا حيث صرف القسط الأعظم من حياته مدرّساً في جامعة ماربرغ، يواصل فيشر أسفاره في المتوسّط بدءاً بالعام ١٨٨٦، وخاصّة إلى إفريقيا الشمالية. ويتابع أبحاثه، خلال ثلاثة عقود، حول موضوعاتٍ مختلفة كالدراسات حول الساحل اليوناني والتونسي، والمورفولوجيا الجغرافية لإيطاليا، وجبال شبه الجزيرة الإيبيرية، بالإضافة إلى دراسات حول بعض المسائل المناخية. ويكتشف فيشر، من خلال أبحاثه الجغرافية، لا التاريخية، وحدة المجال المتوسطي. وسينشر ضمن كتابه «صور المتوسّط»، الصادر عام ١٩٠٥، ثمرةَ ثلاثين عاماً من الأبحاث، هي مجموعة مقالات علمية منشورة سابقاً ومجموعة نصوص في أدب الرحلات [٢٣]. لكنّه لا يتضمّن أية قراءة للمتوسّط من وجهة التاريخ الثقافي. وعلى الرغم من أن عنصر الجغرافيا البشرية لا يكتسب لديه، في البداية، سوى أهمية ثانوية، يبدأ فيشر في استعراض التوازيات بين الجغرافيا وبين العامل البشري. وفي «شجرة النخيل في الحياة الثقافية والروحية في الشرق»، يفترض أن وجود هذه الشجرة قد زاد من الكثافة السكانية في المناطق القاحلة قبل أن يتمكّن العرب من غزو جهات العالم الأربع وقبل أن يؤدوا، انطلاقاً من أرضٍ أكثر ملاءمةً، دورهم في التاريخ العالمي. إلى ذلك، يقف فيشر موقفاً شديد التحفّظ، شأنه في ذلك شأن تحفّظ الكثيرين حيال أرض الإسلام، من جعل الدين هو المسؤول الوحيد عن التخلّف. ففي وصفٍ لأحد أسفاره في العام ١٨٨٦، بعنوان «بين تيبيسا وغابس – نُبَذٌ عن أسفار في تونس الجنوبية»، يؤكّد فيشر بأنّ تردّي الحالة الاقتصادية يعود بخاصّة، إلى جانب الديانة السائدة وأوضاع المرأة الاجتماعية، إلى عوامل جغرافية :

> «إنّ طبيعة البلد، وخاصة المناخ، تجعل المناطق المأهولة بالعرب، الذين تبعوا الإسلام، مناطق رعي.»

أي أن العرب الرحّل حوّلوا إلى مناطق رعي كلّ الأراضي المزروعة قديماً، كما جرى في تونس، مقتلعين كلّ الأشجار عادمين كلّ المزروعات [٢٤].

ألفرد فيليبسون، وهو ابن حاخام، من مواليد بون عام ١٨٦٤، يبدأ حياته المهنية بعد فيشر بنحو خمسة عشر عاماً. بعد دراسته الجغرافيا والجيولوجيا في بون ولايبزج، ينطلق في رحلات مكرّسة للأبحاث بدءاً بالعام ١٨٨٧، وخاصة في اليونان وآسيا الصغرى، ولكن أيضاً في روسيا. ومن خلال أطروحةٍ أنجزها حول حدود اقتسام المياه، أولى فيليبسون جلّ اهتمامه للمسائل الجيولوجية كتكوّن الجبال، والهزّات الأرضية، ولكن أيضاً لوصف بلدان المتوسّط (Länderkunde). وقد توصّل، على غرار فيشر، إلى استنتاج وحدة في المجال المتوسطي انطلاقاً من عوامل جغرافية. ولكن في حين انتمى فيشر إلى جيل يجهد في جمع التفاصيل، امتلك فيليبسون جرأة وصف المتوسّط بكليّته كمنطقة. عام ١٩٠٤، ينشر فيليبسون «المجال المتوسّطي» الذي يجمع خصائص المنطقة الجغرافية والثقافية [٢٥]. وهو ثمرة دروس صيفية أعطيت لمدرّساتٍ في آب / أغسطس ١٩٠٠ ، وأعيد نشر الكتاب في أربع طبعات حتّى العام ١٩٢٢. وبذلك حظي الجمهور – الذي بات معتاداً الأسفار – وللمرّة الأولى، بلمحة عميقة ليس فقط عن نشأة المجال، والبحر والسواحل والمناخ والمياه والنبات والحيوان، بل أيضاً بتمهيدٍ للجغرافيا البشرية التي لم يقربها فيشر قط. وينكر فيليبسون الاعتقاد بأن الاهتمام المعاصر بالمتوسّط إنما يعود فقط إلى استحقاقات مادية :

> «إنّ خراب الاقتصاد في أجزاء واسعة من المجال المتوسطي، وتوسّع الاقتصاد العالمي عبر الكرة الأرضية، وانتقال مراكز هذا الاقتصاد العالمي وخطوط النقل باتجاه سواحل الأطلنطي قد تسبّبت جميعها في تطور أوروبا الغربية والوسطى، كما حوّلت تفوّق المجال المتوسّطي إلى نقيضه.»

في المقابل، نجد أنّ اللازمة المتكرّرة في الدعوة إلى الاهتمام بالمتوسّط، تنطلق من طابعه الغريب قياساً بالبيئة اليومية لأهل الشمال :

«منذ نعومة أظفارنا ونحن نضمر الرغبة الدفينة في أن نرى الجنوب. يتبارى شعراؤنا وفنانونا وكتّابنا وعلماؤنا في استثارة هذه الرغبة ويقدّمون، عبر وصفهم، عِوَضاً لكل من لا يستطيع تلبيتها.» (٣٦)

كان بإمكان فيليبسون أن يكتب سلسلة من الدراسات، يتناول كلّ منها بلداً على حدة من بلدان (Länderkunden) ؛ ومع ذلك فإنّ مقاربته تحرص على القطيعة مع هذا التقليد لكي

«يقدّم ملخّصاً لمختلف التجليّات الجغرافية في المتوسّط، التي يؤثّر بعضها على البعض الآخر، والتي تسم إذاً هذه المنطقة كمجالٍ من الأرضِ المتناسقة، وإن فُرِّدَت بسماتٍ خاصّة، والتي كانت بطبيعتها قابلةً لأن تكون مهدَ ثقافة وتاريخ لا يضاهيان.» (٢٧)

كان شعار دار النشر التي أصدرت مؤلفات فيليبسون يتمثّل بتأسيس المتوسّط على قاعدة متينة من الملاحظات الدقيقة لا بتعريضه لتأملات روحانية عميقة. وهكذا وضِعَت قاعدة جديدة للخطاب المتوسّطي : وهي مبدأ السببية القابلة للبرهان. وما عاد المؤرخون هم وحدهم الذين يتناولون المتوسّط بالدرس والتحليل.

لن يتجرأ المؤرخون على تناول المتوسّط في أعمالهم، إلاّ مع نهايات القرن التاسع عشر، عندما جوبهوا بتحدّي العلوم الصحيحة. طبعاً لم يخلُ القرن من محاولاتٍ عديدة للخروج بخلاصات، غير أنها كانت تميل في الأغلب إلى التقليد الهيغلي أو أنها كانت تدحض هذا التقليد. يؤكّد أرنست فون لازولكس (١٨٠٥–١٨٦١، Ernst von Lasaulx) في«مبحثٍ جديد لفلسفة تاريخ قديمة مبنية على حقيقة الوقائع»، مذهب أرسطو الذي يقول

بوجود تماثل بين الإنسان والمناخ ؛ ويتنبأ بمستقبل واعد لإيطاليا :

«ترتبط بالبلدان الشمالية ولكن تفصلها عنها سلسلة جبال الألب المنيعة ؛ وهي ممتدة على سواحل البحر الرائع الذي يربط بين آسيا وإفريقيا وأوروبا، ما يعني أنها أقرب إلى هذه القارات في الوقت الذي تتمتّع فيه، هي نفسها، بمساحة لا يستهان بها تبلغ ٥٨٠٠ ميل مربّع؛ وهي أقل تصدّعاً بالجبال من اليونان، حُبيَت بسهول واسعة، غنية بكلّ المحاصيل الطبيعية ومكسوة بأجمل السماوات، فبذلك تبدو إيطاليا أقدر من أي بلد آخر على توفير الغذاء لشعبٍ وافر العدد وعلى تزويده بكل الوسائل التي تضمن له التطوّر الأغنى والأكثر حريّة.» [٢٨]

كان ثبات مثل هذه الرؤى على قدر من الأهمية بحيث أن يعقوب بوركهارت (١٨١٨–١٨٩٧، Jacob Burckhardt)، مؤلّف الكتاب الشهير «حضارة عصر النهضة الإيطالية» قد وسَم تلك الحقبة بأنها «عصر اكتشاف العالم والإنسان»، من دون أن يكون، هو نفسه، من بين مكتشفي المتوسّط. فهو لا يأتي على ذكره إلاّ لماماً، كما في وصفه، مثلاً، لحدائق وحيوانات عصر النهضة :

«كانت سهولة النقل عبر المرافىء الجنوبية والشرقية للمتوسّط، وكذلك ملاءمة المناخ الإيطالي، تسمح بشراء الحيوانات الأشدّ قوّةً من الجنوب أو بقبولها كهدايا من قبل السلاطين.» [٢٩]

ولكن، على الرغم من أن معظم التاريخ الذي يلاحظه ويرويه تجري أحداثه حول المتوسّط، فإن بوركهارت لا يتبنّى البحر كإطار لتصوّر. ففي كتابه «تأملات في التاريخ الجامع»، وهو سلسلة محاضرات جامعية ألقيت بين ١٨٦٨ و ١٨٧٠/١٨٧١ نشرها إبن أخيه في العام ١٩٠٥ ، ينقلب بوركهارت بوضوح ضدّ كل الذين يقرأون التاريخ انطلاقاً من الجغرافيا :

«إنّ مسائل كتأثير الأرض والمناخ وكذلك حركة تاريخ العالم من الشرق إلى الغرب هي مسائل تمهيدية لفلاسفة التاريخ وليس

لنا نحن – ولذا ينبغي اجتنابها كلياً – ومعها كلّ ما يتصل بالكونيّ، ومذهب الأعراق، وجغرافية القارات القديمة الثلاث، إلخ...» (٣٠)

ما يعني أن هانس هلمهولت (Hans Helmholt) بذلَ جهداً علمياً لا يستهان به عندما قرّر أن يكرّس للمتوسّط جزءاً من مؤلفه «التاريخ الجامع»، الصادر بين ١٨٩٩ و١٩٠٧ . ففي الجزء الرابع الصادر عام ١٩٠٠ والمعنون «البلدان المحاذية للمتوسط»، يطلق يد أدوارد فيلتشيك (Eduard Wilczek) الذي سبق له أن شرح، في كتابٍ آخر، مقاربته لتحليل مكانة المتوسّط في التاريخ الجامع من وجهتي نظر، أي وجهة نظر فلسفة التاريخ ووجهة نظر الطابع البحري (٣١). في مقدّمته للتاريخ الجامع لهلموت المعنونة «التماسك التاريخي للشعوب المتوسّطية»، يكرّر التأكيد بأنّ المعنى الجامع للمتوسّط يعود إلى موقعه الجغرافي (٣٢). فالبحر هو الذي ينشىء القارات الثلاث : أوروبا وآسيا وإفريقيا ؛ والبحر هو الذي يجمع ما بين الهند – أوروبيين والساميين والبربر. وإذا كانت المنطقة تشكّل وحدة برية، لكان النطاق الذي يحتله المتوسّط «بسببٍ من اتساعه الهائل، يتميز بظروف مناخية وجوية غير مؤاتية على غرار آسيا الوسطى»، ولما كان مهداً للتاريخ الجامع (٣٣). لذا، فبفضل ما يسمّيه آخرون «القارة السائلة» سوف تنبثق «الروحية المتوسطية» التي يفترض أن شعوباً مختلفة قد أسهمت بتكوينها بطرائق مختلفة : المصريون والإسرائيليون والفينيقيون واليونانيون والقرطاجيون، وأخيراً الرومان الذين برزت لديهم الروحية المتوسطية على نحوٍ واضح. فإذا كان اليوناني قد نمّى النزعة الفردية، فإنّ الروماني يكون قد أدخل نزعة التفوّق المطلق للدولة التي ستمتد، في صيغة الإمبراطورية الرومانية، إلى كلّ المنطقة. وسوف تنشىء المسيحية رابطة وحدة أشدّ وثوقاً بعدُ حول المتوسّط :

«إنّ الإيمان بإله واحد لدى الإسرائيليين ؛ والحيوية التجارية لدى الفينيقيين ؛ والانطلاقة وحسّ الجمال وحبّ السعي لدى

الهلينيين ؛ والحسّ القانوني، وروحية النظام والعلوم الاجتماعية لدى الرومان، كما شرعة حبّ البشر للمسيحية، كلّها متداخلة ومتفاعلة ؛ تحفظها الملاحة في حالٍ من الاتصال الدائم وتخلق الروحية المتوسطية (...).» [٣٤]

الشعوب الجرمانية والإسلام، هما القوّتان اللتان تتدخلان في هذا المجال في أواخر العصور القديمة. ولكن فيلتشك لا ينتقد لا الشعوب الجرمانية ولا الإسلام، كما لو أنهما دمّرا وحدة المتوسّط : «فما كاد العرب يستقرون في المتوسّط حتّى مسّتهم الروحية المتوسطية»، وصاروا بحّارة وباحثين [٣٥]. حتّى التعارض بين غرب وشرق لا يمكن أن يُفهَم إلاّ انطلاقاً من الجوار ؛ وحتّى لو لم يكن على الدوام جواراً محموداً، فهو يؤكّد أن الحملات الصليبية نفسها كانت لتحدث أثراً إيجابياً على تماسك المجال :

«لقد صار بين الغرب والشرق تعارف. ليس فقط أن سيف الفارس الطويل قد تقاطع مع حسام المسلم ؛ ليس فقط أن الإنجيل قد قابل القرآن : بل جرى تماسّ بين مزايا الغربيين ومزايا الشرقيين.» [٣٦]

إنّه يرى أنّ أجزاء المتوسط المختلفة قد نمّت، من خلال الصراع نفسه، نوعاً من المودّة فيما بينها، بحيث أن أعراض التعب من الحرب أتاحت أخيراً أن ترضخ هذه الأجزاء للتبادل السلمي. وهنا يلمّح فيلتشك إلى ما برهن عليه أدولف شاوب (Adolf Schaub) في كتابه «تاريخ تجارة الشعوب الرومية في المتوسّط حتّى نهاية الحملات الصليبية». لقد توقفت حركة التجارة المتوسطية بفعل الغزوات العربية، لكنها توقفت أيضاً بسبب قرصنة النورمانديين، ولصوصية القبائل السلافية، واختراقات الهنغاريين. والسمة المشتركة لهذه الظواهر هي أنها لم تكن تشكّل غزواً متواصلاً تستطيع معه حركة التجارة أن تتدبّر أمر استمرارها، بل كان مسلسلاً من أعمال النهب. وبالتالي، فإنّ التجارة عادت إلى سابق عهدها ما أن استقرّت خارطة المُلكيات في المتوسط. إن عصر

النهضة يمثّل، في نظر فيلتشك، فترة ازدهار جديد للروحية المتوسطية. أمّا حال التخلّف في المتوسّط الشرقي فمردّها، في الواقع، إلى وجود فسيفساءٍ أتنية لم يتمّ تجاوزها بعد لصالح قيام الدول الأمم. وهذه الإشكالية هي التي تشكّل «المسألة الشرقية».

يبقى بحث فيلتشك، النمسوي، في الفترة التي كان فيها للإمبراطورية الهابسبرغية موقع في المتوسّط، جزئيةً لا تصمد، على مستوى التفاصيل التاريخية، أمام النقد الذي يأخذ عليه دمجه التبسيطي للعالم الإسلامي ؛ ذلك أن نشاط منظري الأوساط الثقافية لم يبدأ بعدُ.

سياحة

لا يقتصر الخطاب المتوسطي على حلقة العلماء. بل إنّه يعمّم على نطاق واسع بفضل السياحة التي كانت، برغم ذلك، في تلك الحقبة أكثر درايةً وثقافة من سياحة الجماهير التي سادت في النصف الثاني من القرن العشرين.

> «إنها هجرة حقيقية للشعوب التي تتدفق دورياً من الشمال إلى الجنوب، وعلى جبهةٍ هائلة الامتداد، من سواحل المحيط الأطلسي في الغرب إلى سفوح القوقاز البعيدة في الشرق،»

كما يشهد سائحٌ سويسري.

> «كلّهم يسعون للوصول إلى بلدان المتوسّط، بعضهم عبر وادي الرون، تلك الطريق العسكرية القديمة الرحبة، وبعضهم الآخر من طريق جبال الألب. حتّى في الشرق ليس التدفّق أقلّ زخماً. فالروسي يلجأ إلى سواحل القرم الجنوبية أو إلى الريفييرا الروسية، ذلك الساحل الشرقي للبونتوكسي (البحر الأسود، حالياً – م.) العاصف الذي أعدّ مؤخراً لهذه الغاية.» [٣٨]

تحتفظ الرحلة بطابع التنشئة الثقافية (Bildung) التي تعد بها هذه البلدان الزاخرة بالنور والأزهار كما سميت مراراً. كثيرة

هي نصوص أدب الرحلات عند منعطف القرن، وخاصّة في العقد السابق على الحرب العالمية الأولى. فقد أحيا افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩، حركة النقل في المنطقة وأطلق الدورة الاقتصادية مجدداً. كان السفر عبر المتوسّط في كلّ الاتجاهات (Kreuz und quer durchs Mittelmeer) هو برنامج البورجوازية المثقفة لجيلين تقريباً منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتّى الحرب العالمية الثانية (٣٩). وكان يتمّ فردياً أو في مجموعاتٍ : المحامون والأطباء والجامعيون، و«حتّى النساء»، كما يؤكّد أحد تلك النصوص. البورجوازية تسافر. أو على وجه الدقّة : تهجر الدروب المطروقة عبر الألب، وتبدأ بركوب البحر، فتتعلّم وتلهو. وتغدو الأسفار أكثر فأكثر يسراً ؛ ولكن كلّما قصد السيّاح الأماكن البعيدة تضاءل الوقت الذي يخصصونه لزيارة الصروح الأثرية. غوته بقي لعامين في إيطاليا ؛ أما السياح فلن ينزلوا إلى البرّ إلاّ ليومين على الأكثر قبل أن تعاود السفينة إبحارها. فهذه هي كلّ المدّة التي توفرها السفن السياحية لركابها، كما يشرح نوع جديد من الكتب بدأ بالانتشار : هو «دليل المسافر». في مطلع القرن، لم يكن الـ Meyers Reisebücher (دليل مايرز للسفر) يغطي ، إلى جانب ألمانيا، سوى بضعة بلدان من أوروبا والشرق المتوسطي. وفي عام ١٩٠٢، ولكي لا يضطرّ المسافر «إلى حمل خمسة أو ستة أجزاء من دليل السفر الذي لن يستخدم منه سوى فصل أو فصلين»، أصدر الناشرون ملخّصاً حول «المتوسط ومدنه الساحلية» الذي لن تستمرّ طبعاته سوى لسنتين فقط (٤١). وسوف تتجه «حمّى السياحة الجرمانية» (٤٢) نحو جبل طارق وجنوى ونابولي وباليرمو وأثينا أو البندقية. ولكنّ مدناً أخرى سوف تظهر على الخارطة كالجزائر وتونس ومالطا والإسكندرية وبيروت والقسطنطينية. وفي منطقة البحر الأسود نسافر إلى أوديسا والقرم وطرابزون وباطومي. إذ يقول الدليل :

«المسافرون يغدون من دون وعيٍ منهم حملةَ ودعاةَ رؤية للعالم (Weltanschauung) تأنف من الحكمِ بضيقِ أفقٍ على

الناس والأشياء في الخارج انطلاقاً فقط من نظرتهم لأنفسهم.»

يبقى أن السفر هو مشروع صعب ؛ فالرحلة إلى الشرق «ليست دائماً، وبرغم المؤسسات الغربية المعتمدة، ما يمكن أن يسمّى بـ "رحلة متعة"». وإذ يتابع دليل المسافر شرحَه بأنّ الرحلات في المتوسط تتيح «التيقّن من المستوى الثقافي الخاص بالتعارض مع الخارج»، والتقويم الذي «يحيل ، من جهةٍ أخرى، نزعة الغطرسة القومية إلى مرتبةٍ ثانوية» (٤٣)، فإنّه لا يعبّر بذلك عن واقع الحال : فمن أجل سلامة المسافر الذي يرغب في أن يحمل معه مسدساً إلى تركيا، ينصح بشدّة «أن يخفيه في جيب سترته قبل المرور بنقطة الجمارك» (٤٤).

مما لا شك فيه أن السياحة تستلهم الخطاب العالِم لرجالات الأدب والمؤرخين والجغرافيين. والدليل المنشور في سلسلة «مايرز رايزبوخر» يستعيد، حرفياً حتّى، بعض فقرات مبحث فيلتشك التاريخي (٤٥). وإلى ذلك، لا يكتفي هؤلاء بالسفر، بل لا يألون جهداً في نقل ونشر تجاربهم الخاصّة في عدد من نصوص أدب الرحلات ؛ تحصي قائمة المكتبة الوطنية في برلين – وهي قائمة غير مكتملة –، بين مطلع القرن والحرب العالمية الثانية، ثماني عشرة مطبوعة لمسافرين يصفون اكتشافاتهم في المتوسّط. فليس أمراً نادراً أن تحاول الذاكرة النسجَ على منوال الأقدمين : وخاصة غوته وغريغوروفيوس. وغالباً ما يطبع السيّاح كتبهم على نفقتهم؛ أحياناً لا يكون ما كتبوه أكثر من محاكاةٍ لانفعالات سائدة. ولكن لِمَ ينبغي لصورة المتوسّط أن تكون منزّهة عن هذا التعميم الحديث للأساتذة ؟

الدائرة الثقافية والعرق المتوسطي

فيما كانت الجغرافيا الفاقدة الحيوية تفرض وحدة المتوسّط وآلاف السيّاح يستمتعون بإكزوتيكية الشرق المتوسطي، كان الجغرافيون بالذات، هم المعرّضون لمشقّة إدراجِ فكرةِ مجالٍ موحّدٍ

بفعل الطبيعة، في سياق واقع التباينات التاريخية. وعلى الرغم من أن فيشر يلامس بعض أوجه الجغرافيا البشرية في مجموعة مقالاته الأولى، فهو لن يتطرّق، قبل عام ١٩٠٨ وصدور الجزء الثاني من كتابه «صور المتوسّط»، إلى العامل البشري على نحو أوضح راسماً حدوده :

«نحن نتكلّم على دائرة ثقافة متوسطية تمتدّ فيها جذور ثقافتنا الأوروبية التي تنمو، منذ منتصف القرن التاسع عشر، بمواجهة الثقافة الأوقيانية والجامعة : المسيحية والتنشئة الكلاسيكية (Klassische Bildung).» (٤٦)

وعلى الرغم من أن فيشر يؤكّد، في العديد من أبحاثه الجغرافية، وحدة المجال، وخاصة الطابع اللا إفريقي لإفريقيا الشمالية والسمة اللا آسيوية لآسيا الصغرى، فإنّه، من وجهة النظر الحضارية، يرى انقساماً. فالإسلام يفرض «حاجزاً عبر المتوسّط» وهو حاجز «قد تمّ إلى اليوم تحجيمه ولكن لم تتمّ إزالته». إنّ الاجتياح التركي الذي يرسم، من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر، الحدود السياسية بين البلدان والشعوب المتوسطية، قد أغلقَ، برأيه، الأجزاء المسلمة عن بقية الحوض أكثر مما فعله السلطان العربي. وقد أتاح انسحاب الإمبراطورية العثمانية، وتحرير اليونان وصربيا وبلغاريا، عودة هذه البلدان إلى العالم المسيحي، ولكن على الرغم من الوجود الفرنسي في الجزائر وتونس، ووجود إنكلترا في مصر، «فإنّ حدّة التعارض بين المسيحية والإسلام» لم تخفّ.

«على العكس : ساد ما يشبه التوتّر الكهربائي على مجال المتوسّط بأكمله، وسوف يترجم ذلك في هذه المنطقة، خاصة في بلدان الأطلس وفي مصر، على نحوٍ سوف يعجب له الجاهلون.» (٤٧)

يستنتج فيشر من الأرقام الديموغرافية تفوّقاً عددياً للسكان المسيحيين حول المتوسّط – ٧٥ مليوناً مقابل ٣١ مليون مسلم ؛ غير أن مثل هذا التفوّق، برأيه، ينطبق على الحضارة

(geistige Kultur) وعلى الحياة الاقتصادية :

«تبرهن مصر وتونس والجزائر، بعد أن وضِعَت تحت إدارة أوروبية مسيحية، على أنها تحقّق تقدماً اقتصادياً وديموغرافياً. إذ لم تكن هذه التعارضات بين المجال المسيحي والمجال المسلم في المتوسّط موجودة على الدوام، لا بل مرّت أزمنة كان فيها العالم المسلم مساوياً للعالم المسيحي، بل ومتفوقاً عليه.» (٤٨)

إنّ تفوق أوروبا قائم على الطابع القاري وعلى حذر المسلمين من البحر:

«فالبحر إذاً لا يلعب أي دور في حياة مُتَّبعي الإسلام في المتوسّط وفي تطورهم الثقافي !» (٤٩)

أما ألفرد فيليبسون فيرى أن المتوسّط هو

«الساحة التي فيها انبثقت الحضارة الغربية وتطوّرت، بحيث أنه يشار إلى دائرة ثقافتنا كلّها بأنها متوسطية حقاً.» (٥٠)

يطالَب بالمتوسّط على أنه أوروبي، فيما عالم الإسلام مستبعدٌ منه بهذا القدر أو ذاك. وينعكس طابع الانقسام الإتني في المتوسّط عبر الفصل الديني ؛ فبما أن الكنيسة الرومانية تسيطر على غرب الحوض المتوسطي والكنيسة اليونانية على شرقه، يسيطر الإسلام على جنوبه من دون أن يتوّج نجاحه في أوروبا بقابلية الاستمرار. ذاك هو حاجز المتوسّط. وإذا استطاع الاسكندر الكبير توحيد المتوسط الشرقي، فإنّ وحدها الإمبراطورية الرومانية تمكّنت، انطلاقاً من المركز الطبيعي للمجال، أي إيطاليا، من توحيد المتوسّط بأسره : «وهو المثال الوحيد من نوعه في التاريخ» (٥١). أما الاختراقات العربية التي تنتزع من أوروبا كلاً من سوريا وبلاد ما بين النهرين وكذلك إفريقيا الشمالية، سياسياً وثقافياً، فهي لم تكن، في أوروبا، سوى حقبٍ من التاريخ. فالخلفاء، على غرار العثمانيين، خسروا، بحسب هذا الرأي، أراضيهم لأنهم لم يسيطروا

«على المتوسط نفسه» (٥٢). وإذا كان المجال المتوسطي، في العصور القديمة، منقسماً إلى دائرتين ثقافيتين، شرقية وغربية، فإنّ «الانقسام بين دائرة ثقافية مسلمة في الجنوب والجنوب الشرقي ودائرة ثقافية مسيحية في الشمال» حدث مع مجيء الإسلام. وهكذا تكون الحضارة المتوسطية في العصور القديمة قد تخطّت المتوسّط لتسود، أولاً، أوروبا، ومن ثمّ المستعمرات: «فهي غدت ثقافة أوروبية». وكان ثمن ذلك أنها خسرت أكثر من نصف موطنها لصالح الإسلام الذي

«حتّى لو استعاد الكثير من الحضارة المتوسطية القديمة، يبقى غريباً عنها بكليّته. ومنذ ذلك الحين لم يعد المجال المتوسطي وحدةً بل بات منقسماً بين دائرتين ثقافيتين تتجاوزانه إلى حدّ بعيد. لقد بات مجالاً حدودياً والحدود يرسمها تقريباً البحر نفسه. إلى اليوم نجحت الحضارة الأوروبية بالتغلغل، على ما يبدو، برغم العرقلة التي يتعرّض لها تطوّرها باتجاه أن تكون الحضارة الجامعة من قبل الإسلام، في البلدان الإسلامية في المتوسّط؛ ولكنّها لن تتمكّن من الاستمرار في ذلك في مستقبلٍ قريب.» (٥٣)

على الرغم من التشابهات البديهية في مقاربتي فيشر وفيليبسون، فإنّ هذا الأخير يتميّز على نحوٍ حاسم. فهو، نفسه، يعترف بأن ملاحظاته «قابلة لزعزعة مفهوم المجال المتوسطي بوصفه وحدة جغرافية وتاريخية. ولكن في حدودٍ معيّنة». فبرغم كل التباينات القائمة على الأعراق والمصائر والظروف المحلية الخاصّة بالمتوسط، هناك سمات مشتركة. ويسعى فيليبسون جاهداً للبرهان على «السمات المتوسطية للإنسان المتوسطي» (٥٤). ويشير إلى إشكالية السيكولوجيا المقارنة للشعوب (Völkerpsychologie) ليؤكّد تحفظّه على رأي تيار قد يستنتج تأثيرات للبيئة على نفسية الأمم، كما يؤثّر الضياء في المعارف الفلكية أو أشعة الشمس المشرقة في الشعر. إذ يرى فيليبسون، أن الأوضح من ذلك كلّه هو تأثير المناخ في نمط العيش وفي العادات الاجتماعية. فالمناخ المعتدل يتيح للإنسان المتوسطي أن يكسب

رزقه بجهد أقلّ من الجهد الذي يبذله الإنسان في الشمال. وبالتالي فمن شأن المتوسّط أن يؤوي عدداً أكبر من المتبطّلين مما قد تؤويه أوروبا الوسطى. ما يعني أن لدى المتوسطي متسعاً من الوقت إما للهو وإما للانخراط في الشؤون العامة. كما أن المناخ هو الذي يتيح أيضاً أن تبنى المنازل بأهون مما تبنى في الشمال، وأن يكون العيش في الهواء الطلق هو القاعدة المتبعة في الجنوب. هكذا من شأن الحياة العائلية أن تكون معلنةً، وأن يتّسع مجال الضيافة حيال الجيران والغرباء. ومع ذلك :

«لقد شوّه الإسلام في جزء واسعٍ من المتوسّط، وعلى نحو كلي، الطابع العمومي للمنزل وللحياة العائلية. البيت المسلم مغلق بشيء من التوجّس ؛ كلّ نافذة مطلّة على الشارع مكسوّة بشباك معدنية ؛ والشرفات والكنّات تطلّ فقط على الفناء الداخلي الذي لا تطاوله نظرة غير المأذون له أن ينظر»

و المرأة لا تظهر في الشارع إلاّ محتجبة.

يرى فيليبسون في هذه الممارسة التي كان شاهداً عليها بنفسه، «انقلاباً مصطنعاً لنمط العيش الطبيعي أحدثه الدين» ومن شأنه أن تكون له تبعاتٌ عميقة. فمن جهة، تفسّر بأنها علامة ضعف ثقافي إزاء المسيحيين، أما من الجهة الأخرى فمن شأن نمط العيش هذا أن يكون تعبيراً عن مقاومة سلبية لا تقهر، يبديها الإسلام :

«كلّ بيت مسلم هو، في معنى ما، حصن في وجه الأَوْرَبة.»

ومع ذلك فإنّ هذا الانعزال بالذات هو الذي من شأنه أن يحثّ الرجل المسلم على تمضية وقته في الهواء الطلق، الأمر الذي يسهم في قيام الصلة بينه وبين الحياة المتوسطية. هكذا نستطيع أن نكون على يقين أننا في البلدات الصغيرة «سوف نعثر على العمدة أو رئيس الشرطة، أو سواهما، في المقهى المفضّل لديه وليس في مركز عمله». فحياة الرجل العلانية «هي سمة من سمات الشعوب

المتوسطية التي استمرّت عبر العصور»، بحسب فيليبسون الذي يؤكّد :

«بإمكاننا صوغ التعارض الأبرز على النحو التالي : إنّ الرجل في الشمال لا يغادر منزله، فيما الرجل في الجنوب لا يدخل إلى بيته إلاّ لسببٍ جوهريّ.» (٥٥)

بيدَ أن المسلمين لا يشاركون كلياً في الممارسات التي تنجم عن الحياة العلانية. من المؤكّد أنهم قد يلتزمون أصول اللياقة والسلوك الحسن ودربة اللسان ومعنى الثقة التي تنجم عن الحياة المشتركة مع مواطنيهم، ولكن يفترض أن الإسلام «قد لطّف من حميّتهم بامتداحه الكرامة والرويّة، ويطمسه، بسبب من قواعده الجامدة وتقديمه للسلطان، كلّ معنى سياسي». وإذا كانت الثقافة السياسية لدى المسلمين تكيّف نفسها مع عصر فيليبسون، فإنما ذلك «لأن الأنوار والحرية السياسية المعاصرة في الشرق قد استقدمت، في الواقع، من أوروبا الغربية». ومع ذلك لا يمكن القول بعدُ إن ما أنجز هو بمثابة نجاح ؛ فهذه السيرورة «تمّت حصراً على يد شريحةٍ "عليا" غير ناضجة، ومتأوربة على نحو مصطنع، صارت غريبة عن الإسلام ولا عرقَ لها»، ما أدّى، بحسبه، «إلى تدمير الأسس المتينة للدولة الإسلامية دون التأسيس لما يُعَوَّل عليه بدلاً منها» (٥٦). على الأقلّ، لا يستبعد فيليبسون إمكانَ التكيّف مجدداً مع المجال الطبيعي.

قد يبدو مذهلاً أن يكون النموذج المتوسّطي راسخاً إلى هذا الحدّ بحيث يضطرّ آخرون إلى تبرير مقارباتٍ متمايزة عن الصيغة السائدة، خاصّةً وأنّ حال الاستشراق الألماني كانت لتشكّل منطلقاً سهلاً. ومع ذلك فإنّ ثلاثية إفالد بانسه (Ewald Banse) الجغرافية تبدأ وكأنّ على المؤلف أن يبرّر انحرافه عن السويّة الشائعة لكي يُدخِلَ معنى «الشرق» في صلب النقاش :

«فكما جرى تقديم معنىً "لمجالٍ متوسطي ما"، كذلك من الممكن أن نناضل من أجل معنىً "لشرقٍ ما"، وبصرف النظر عن

القسمة المبسّطة للكرة الأرضية إلى هذه القارة أو تلك.»

ويؤكّد أن الأمر يتعلّق بمجموعة معقّدة من البلدان المتميّزة عن بقية العالم، لكي يشدّد على الاختلاف الثقافي :

«أليس أعضاء الشرق على صلةٍ قرابة وثيقة، على الأقلّ، كما هم أعضاء الدائرة المتوسطية؟ أليس المغربي أقرب روحياً إلى الإيراني منه إلى الأسباني ؟» (٥٧)

يعترف بانسه Banse بأن الشرق هو معنى نسبي في الزمان وفي المكان ؛ غير أنه لا يدع مجالاً للشكّ في صلاحيته القائمة على الديانة الإسلامية :

«حيث لا يرتفع الآذان من المآذن الرفيعة كالأفاعي، لا نشعر بأننا في الشرق. وهذا النهج هو نهج جغرافي من دون شك، لأن ديانة محمد على قدرٍ كبير من التكيّف مع طبيعةٍ بعينها، وعلى قدرٍ من الملاءمة مع الأرض حيث تعجز الديانات الأخرى.» (٥٨)

لقد عمد اللاهوتي البروتستانتي أرنست ترولتش (Ernst Troeltsch) إلى شرح معنى الدائرة الثقافية (Kulturkreis) على نحوٍ خاص، في سياق الجهد المبذول من قبله لتعيين حدود فلسفات التاريخ التي كانت تزعم أنها قادرة على إدراج تاريخ العالم كلّه في نموذجٍ. فأكّد ترولتش، في معرض ذلك، بأن البشرية لا وجود لها كموضوع تاريخي موحّد. وفي مبحثه عن «بناء التاريخ الثقافي الأوروبي»، الصادر عام ١٩٢٠، يؤكّد :

«أن موضوع التاريخ لا يكون إلا بمقدار اجتماعه حول وحدةٍ ثقافة ومعنى (...). وينبغي للفكرة القديمة القائلة بتاريخ عالمي أن تكتسي بأشكالٍ جديدة أكثر تواضعاً.» (٥٩)

وهذه الأشكال الجديدة التي يقترحها هي الدوائر الثقافية :

«إنها متعدّدة : دائرة آسيا القَبلية التي تتحد أخيراً بالثقافة الإسلامية، والدائرة المصرية، والهندوسية، والصينية وأخيراً

الدائرة المتوسطية الأوروبية الأميركية، لكي لا نذكر إلاّ أكبرها، وأهمّها وأكثرها إثارة للاهتمام (...).» [٦٠]

عن البعد المتوسطي، يقول ترولتش إنه جزء لا يتجزأ من «الهوية الأوروبية» التي ستكون موضوع دراسته التاريخية. أما العالم الإسلامي، فلا يتردّد في استبعاده كلياً :

«من الشرق، وحدها النزعة النبوية اليهودية وما يترتّب عليها، والمسيحية، قد تأصّلتا كقوة مستقلّة، ولم يتمّ ذلك إلا لغرضٍ عميق الغور.»

أما الفكرة الأوروبية عن الشخصيّة فلا تمتّ بصلةٍ إلى الشرق، بل إلى الهلينيين ؛

«لقد امتزجت لأسباب داخلية بالروحية الأوروبية قبل المسيحية وخلالها، فيما أنكرها الشرق.» [٦١]

فالدائرة الثقافية المتعيّنة بالمتوسّط وأوروبا وأميركا هي بناء من شأن حلقة المتوسّط أن تكون جوهريةً فيه – بالنسبة لأوروبا ولكن ليس للإسلام.

قد يكون بالغ الدلالة أنّ من ينقضَ هذا الزعم هو المختصّ بالإسلام، كارل هاينريش بيكر (Carl Heinrich Becker). ذلك أن بيكر، الساعي بدأبٍ من أجل صياغةٍ جديدة لأجندة البحث، والرائد المؤسّس للدراسات الإسلامية الحديثة في ألمانيا، يجيبُ في محاضرة ألقاها العام ١٩٢١ حول «الإسلام في إطار تاريخٍ ثقافي عام». فهو يتبنّى فكرة تدوين التاريخ الثقافي انطلاقاً من دوائر ثقافية. ولكن ينبغي له كمستشرق «أن يفترض دمجَ العالم الإسلامي لآسيا القُبْلية في العالم الأوروبي» [٦٢]. ذلك أن قرابة الأسس الثقافية هي، في نظر بيكر، المعيار الحاسم الذي لا يسمح باستبعاد الجوار الإسلامي عن أوروبا. فالإسلام يشترك في جذور الشرق القديم، وفي جذور العصور القديمة الكلاسيكية في صيغتها الكلاسيكية كما في جذور المسيحية في أبعادها العِقَديّة والثقافية

والزهدية. فالعلاقات المتعدّدة الاقتصادية والسياسية والثقافية عبر العصور تشكّل، في نظر بيكر، عالماً مشتركاً ليس له فقط ساحة تاريخية مشتركة، بل يتميّز أيضاً «بقرابة العرق المتوسّطي» (٦٣). فالإسلام في نظر بيكر يمثّل الرابط «بين أوروبا وآسيا الحقيقية» و «إذا شاء أحد ما أن يقيم الفئات لا محالة، يمكن القول إن الإسلام ينتمي كلّ الانتماء لسيرورة التطور الغربي ولذلك ينبغي فصله عن التاريخ الآسيوي» (٦٤). بيدَ أن ترولتش يعاود تأكيد موقفه إزاء بيكر في النسخة المزيدة والمنقّحة من «بناء التاريخ الثقافي الأوروبي» الذي سيدرج ضمن أعماله الكاملة. إنه يعترف بأن الشرق وأوروبا يتشاركان في بعضِ أسس العصور القديمة. ولكن الحاسم، في نظر ترولتش، هو أن نقاط الانطلاق لا تؤدي بالضرورة إلى المصائر نفسها.

«فهذه في المقام الأول هي قرابة واشتراك في الأسس لكنّها ليست قرابة في الغايات وفي التماسك الحياتي (Lebenszusammenhang).»

إنّه يفصل الإسلام عن التحليل :

«الإسلام له تاريخه الجامع الخاص، ومهما كانت متعدّدة ووثيقة صلاته بالنزعة الأوروبية، فهو ليس جزءاً من التاريخ الجامع للانتماء الأوروبي (Europäertum).»

يرى ترولتش أنه لا يعقل أن تكون هناك محصّلة مشتركة بين العالمين باستثناء فكرة ما غامضة عن التسامح «والتي من أجلها ينبغي أن يكون الإسلام حديثاً ومتأورباً، ربّما كالإسلام الذي يسعى وراءه المصريون المعاصرون.» (٦٥)

ولكن ترولتش لا يجيب عن الفكرة القائلة بـ «عرق متوسطي» التي يبدو أنها كانت شائعة عند منعطف القرن ؛ وليس بيكر هو الوحيد الذي أثارها. فالحقيقة أن هذه الفكرة هي مفهوم مركزي في مبحث أدوارد فيلتشك الذي يمهّد للجزء الرابع من «التاريخ

الجامع» لهومبولت الذي سبق ذكره. فبحسب ويلتشك، المتوسط لا ينشيء فقط القارات الثلاث، أي أوروبا وآسيا وإفريقيا، بل هو أيضاً يصوغ عِرقاً من الشعوب الهندأوروبية والسامية والبربرية عبر سيرورة مماثلة لتيّار كَلفَنة :

«البحر يوسّع آفاق نظرة الإنسان إذ يعوّده على الأبعاد التي لا تُحَدّ ؛ والنظرة يتبعها الفكر والفكر يتبعه المزاج والمزاج تتبعه الرغبة والرغبة يتبعها الفعل.» (٦٦)

فهذا النمط من الحركة، في رأي فيلتشك، هو الذي يميّز الشعوب المتوسطية عن سواها. ذلك أن حركة شعوب البرّ هي حركة هجرة، على غرار الغزوات الكبرى، في حين أن حركة أهل السواحل هي حركة تنقّل واتصال فيما بينهم. إن التبادل عبر بحر مدجّن هو الذي يتيح للإبداعات الثقافية أن تبلغ ذروة ازدهارها. فالعرق المتوسّطي يجب أن يؤخذ كمعنىً من معاني التاريخ الجامع، ولا ينبغي الخلط بينه وبين أي معنى من معاني العِراقة :

«إذا اتخذنا إيطاليا مثلاً، نجد أننا حيال تحوّل بطيء على مرّ القرون، من دون أن تشهد مطلقاً أي تهجير جماعي أو إبادة كاملة للأهلين. فالسكان الأوائل صاروا، من دون قسرٍ، الشعوب الإيطاليكية العديدة ؛ ثمّ اندمجت هذه، فيما بعد، بالرومان، وشكّلت مجتمعةً بالتقاطع مع اللومبارديين والقوطيين والفرنكة واليونانيين والنورمانديين والعرب الإيطاليين.» (٦٧)

وهذه السهولة في تعبير الجنسيات هي سمة خاصّة بالمتوسّط.

جغرافيا سياسية

من اللافت حقاً ألاّ تدخل معاني الجغرافيا السياسية، ولسنواتٍ طويلة، في صلبِ تفكير الجغرافيين الألمان. مما لا شكّ فيه أن التجارب التي خيضت عبر البحار من قبل سلطات أوروبية أخرى قد أثارت بعض الاهتمام، ولفتت تيوبالد فيشر بخاصّة. ففي مقالته « خمس عشرة سنة من السياسة الاستعمارية الفرنسية في

تونس» يقرّ بقدرات فرنسا ويقدّمها للألمان بوصفها نموذجاً :

«بلى، الشعب الفرنسي يؤمن بنفسه وبمستقبله ! لقد بلغ من النضوج السياسي والاقتصادي مبلغاً أتاح له أن يعرف بأنّ فقط هذا الجنس من الشعوب ومن الدول في أوروبا هو الذي يستطيع أن يحافظ، استمراراً، على مكانته كقوّة عظمى، والذي ينشىء مصادر قوّة خارج أوروبا، أي تلك التي هي، في الوقت نفسه، قوى عالمية. وعكس ذلك ينطبق على الإمبراطورية الألمانية حيث يحول قصر نظر الأحزاب دون إدراك العديد من الناس هذه الحقائق، أو ترغم مصلحةُ حزبٍ العديدَ من الناس على إنكار الحقيقة الثابتة.» (٦٨)

وفي تحليل له تضمّنه نصّه «انطباعات رحلة إلى المغرب»، الصادر عام ١٨٨٩، يلفت أنظار مواطنيه إلى بلاد الأطلس (٦٩). إذ لم يكفّ فيشر، من خلال محاضراته ونصوصه المطبوعة، عن تكرار قوله إنّه ينبغي لألمانيا أن تسهمَ في القضايا المتوسّطية.

«إنّ حركات التمرّد الدامية التي يتكرّر حدوثها في المغرب، والصعوبات التي ترافق خلاف الحكومة شبه الدائم مع السلطات الأوروبية والتي تؤدي إلى ظهور السفن الحربية، وأحياناً الأساطيل الألمانية في الأماكن الأشدّ خطورة من الساحل، إنما توجّه أنظار الشعوب المتمدّنة شطر هذه الإمبراطورية الفريدة من نوعها في العالم.» (٧٠)

لم يظهر المتوسّط إذاً، إلاّ قبيل الحرب العالمية الأولى، ليس فقط في أفق خبراء الاستراتيجية العسكرية بل أيضاً في أفق بعض العلماء الألمان، وأدّى الاهتمام بهذا البحر إلى طرح المزيد والمزيد من الأسئلة المفيدة. فإذا كان تعدّد الشعوب المتوسطية، يكتسي، في نظر الأقدمين بأهمية ثقافية قصوى، فقد بات من المفيد التعرّف إلى هذه المنطقة الموسومة بالتشرذم الإثني. ومع ذلك، حتّى فيشر الذي استحقّ لنشاطه حيال إفريقيا لقبَ «ماروكو- فيشر»، لبثَ حذراً في مبحثه «شعوب المتوسّط ودلالتها التاريخية العالمية» الصادر عام ١٩٠٧ :

«الإمبراطورية الألمانية ليست قوة متوسطية، ولم تتخذ أي خطوة لكي تصبح كذلك ؛ ولكن يبدو أن تطورها الاقتصادي، وفقط لجهة مواقف سلطتها وقوى الشعب، سيكون له تأثيره أيضاً في المجال المتوسطي.» (٧١)

ولكنّ احتمال نشوب حربٍ، بسبب التنافس الأوروبي، وخصوصاً في المغرب، بات أمراً متوقّعاً. ففي مبحثه «المغرب بوصفه مسرح عمليات حربية»، الصادر في العام نفسه، يبدو فيشر أميل للحذر، لأن من المحتمل أن يكون هذا البلد «مسرح عمليات عسكرية من شأنها أن تقيّد أيّ جيش أوروبي لأعوامٍ طويلة كما من شأنها أن تولّد عدداً من الأحداث غير المرتقبة». (٧٢)

مع ذلك فإنّ كل المقاربات الجيوسياسية لا تهدف إلاّ لتحليل موقف سياسي متعيّن. فيعود «التاريخ العالمي في المتوسّط» لبول هيرّه (Paul Herre)، الصادر عام ١٩٣٠، إلى الآلية السياسية بعامّة التي تحثّ عليها المتوسطات في صيغة الجمع :

«ليست الأرض التي تقطنها الشعوب هي فقط التي تمارس تأثيراً بالغاً على نشأة الحياة التاريخية، بل إن التأثير الأشدّ هو للمياه التي تخترق الأرض على هيئة أنهر أو التي تحوطها في هيئة بحر.»

وبذلك يتبع كارل ريتر (Carl Ritter) في تقسيمه تاريخ البشرية إلى ثلاث مراحل، العصر النهري (Potamos) والعصر البحري (Thalassa)، والعصر المحيطي، للإشارة إلى أنها البحار المتوسطية : الآسيوي في الهند الصينية، والأميركي في جزر الكاريبي، وأخيراً الأوروبي، التي تنجز «عملاً تربوياً جباراً» (٧٣). كلّ متوسّط يتميّز بجوار الضفة الأخرى ويؤدي، على هذا النحو، إلى توسّع الدول وإلى نموّ التجارة. في سياق هذه الحركة، يفيد المتوسّط «الأوروبي»، بحسب هيرّه، من تنوّع الأعراق والشعوب الذي حال دون بلوغ التطوّر الحضاريّ مرحلة ركودٍ مبكرة. وعلى غرار فيلتشك، يرى هيرّه سبب ديناميكية المتوسّط في تنوّع الشعوب

التي سعت للاستقرار في المنطقة :

«إن وجهاً من أوجه فاعلية المتوسّط الأوروبي يكمن في أنه مفيد جداً لتقاطع الشعوب واستيعاب المقيمين على ضفافه بصرف النظر حتّى عن الأعراق المختلفة.» (٧٤)

وعلى النحو ذاته، يرى المتوسّط في حال من التوتّر الدائم جرّاء هيمنة أحد البلدان المحاذية له، ذلك أن في السيرورة المتعدّدة للتشكّل الدولتي، ليس من شأن البحر أن يبقى حدّاً :

«يغدو الساحل قاعدةً لنشاط توسّعي بمعنى انتهاج سياسة استعمارية وانفتاح اقتصادي.» (٧٥)

في كتابهما «المجال المتوسطي» يبدو هانس هومّل (Hans Hummel) وفولف زيفرت (Wulf Siewert) أقرب إلى اهتمامات العصر. إذ يمثّل هذا العمل الصادر عام ١٩٣٦، إسهاماً في الجغرافيا السياسية لمنطقةٍ بحرية ذات أهميّة بالغة. فهما يؤكدان أولاً أنّ الجغرافيا السياسية هي مفهوم صحيح. فكما يجري الكلام على أوروبا الوسطى (Mitteleuropa)، والكتلة الروسية، والشرق ومجال الدانوب أو مجال أميركا اللاتينية، من الممكن إذاً تطبيق معنى الجغرافيا السياسية على مجالاتٍ بحرية. وإذا كان المتوسّط لا يزال مجالاً ينبغي اكتشافه بهذا المعنى، فذلك لأن تاريخ المتوسّط نفسه هو الذي أزالَ التماسك بين المجال والسياسة ؛ لقد فقدت شعوب المتوسّط سيطرتها على مجالها إثر غزوات الشعوب القارية في أواخر العصور القديمة. وهكذا غدا البحر حدوداً «حتّى عودة شعوب المجال المتوسطي الأصلية إلى التاريخ، أي نحو منعطف القرن الثامن عشر». فمع توسّع فرنسا وإيطاليا باتجاه القارة الإفريقية، ومع الأطماع الإنكليزية التي أساسها البحر، «ينحرف المتوسّط عن مصير القارة الأوروبية ويستعيد ملامحه الخاصّة التي كان قد فقدها بعيد الغزوات الجرمانية والآسيوية» (٧٦). ثمّ أخيراً، جاء مشروع إيطاليا المتوسّطي في عهد موسوليني، وكذلك علامات انبعاث الشعور بالمتّحد المتوسطي

(Gefühl mittelmeerischer Lebensgemeinschaft) لترغـــــــــم المعاصرين على تبني رؤية شاملة للمتوسّط، ولتاريخه الجديد ومصيره المشترك «الذي قد يبلغ تمامه في هذا القرن بالذات» [٧٧].

ولكن حتّى في عصر النزعة القومية الاشتراكية، بقيت محدودةً جداً كلّ المحاولات لفتح المتوسّط كمجال استراتيجي. وهي تكاد لا تقارن بتلك الانطلاقة نحو الشرق. لذلك نجد أن دائرة معارف «Meyers Lexikon»، تذكر البحر في جزئها السابع من طبعة العام ١٩٣٩، من دون الخوض فعلاً في سجال جيوسياسي. بل تكتفي بالإشارة إلى الوضع القائم ؛ فحتّى اللحظة إنكلترا هي التي تمارس النفوذ الرئيسي في المتوسّط، وإن كانت إيطاليا تدّعي بأن هذا النفوذ لها بسبب موقعها الجغرافي [٧٨]. وسوف يحدّد هذا التحليل العناوين العريضة للموقف الألماني ؛ إذ يجري التشديد على دور إيطاليا الفاشستية، كما يتضح ما يشبه التطابق بين موقفها وموقف ألمانيا. ولكن كان من الأهمية بمكان أن يطرأ تغيير على هذه النبرة. فعشية الحرب العالمية الثانية، يحذّر مارتن هورليمان (Martin Hürlimann)، في كتاب يخلو من أي مرجعٍ جيوسياسي، من الفكرة القائلة بأن المتوسّط هو منطقة مسالمة :

> «غير أنّ السماء الصافية قد تحتجب وراء الغيوم العاصفة، والأمواج الحسيرة العاتية تزبد على صفحة المياه الرمادية ؛ وعلى الدرب، يتربّص الفقر وتتربّص الآفات ؛ (...) الخرائب تصدح بالخيانة والحرب والنهب، والقتل المتمادي للشعوب المهاجرة (...).» [٧٩]

بعد ذلك بقليل، وفي كتاب بعنوان «الصراع من أجل المتوسّط»، صادر عام ١٩٤٠، يؤكّد فيليب هيلتيبرانت (Philipp Hiltebrandt) أنّ المتوسّط هو البحر الأكثر عرضةً للتنازع عليه ويسمّيه «البحر الدامي» [٨٠]. وهو يرى أن المرحلة اليونانية الرومانية لم تكن سوى استثناء، باعتبار أنّ القاعدة هي وقوعه تحت النفوذ الحاسم للشعوب القارية : كالعثمانيين

والأسبان ثمّ إنكلترا وفرنسا. لأنه لا ينبغي للمتوسّط أن يخضع لـ «حتمية جغرافية» من شأنه أن يبني نفسه بموجبها. فلا المناخ ولا الجغرافيا ولا خطوط اقتسام المياه هي التي تحدّد المتوسّط، بل المشاريع السياسية هي التي تحدّده : ويتمكّن البعض من السيطرة عليه من خلال أطماعه السياسية. بهذا المعنى يكون تأثير الجغرافيا محدوداً، فيما تكون الأبعاد الاقتصادية والسياسية والثقافية هي الغالبة. يرى هيلتيبرانت في المتوسّط المكان النموذجي لتعاقب مراحل الهيمنة ومراحل التوازن لكي يخلص إلى أنّ المتوسّط في الأزمنة الحديثة ليس سوى مستنقع من الركود الاقتصادي والسياسي، ليس سوى «بحر ميت» آخر، وطريق مسدودة. ولم يستعد مكانته «كطريق سريعة للتبادل التجاري العالمي» [٨١] إلاّ بفضل قناة السويس ونفط بلاد ما بين النهرين. ومن زاوية النظر هذه يعطي أولوية للرسالة الإيطالية التي تتبع مسار «معاودة التأكيد على الانتماء الوطني» المماثل للمسار الألماني. هكذا يقترح هيلتيبرانت عملياً تفاهماً بين محور روما/برلين في المتوسّط. فكما لم تشهد سياسة إيطاليا في ليبيا ولا احتلال أثيوبيا بين ١٩٣٥ و١٩٣٦ أي مقاومة من قبل ألمانيا التي «ليس لها ، في المتوسّط، أية مصالح سياسية بعينها»، كذلك الأمر من شأن إيطاليا أن تدرك بأن ضمّ النمسا عام ١٩٣٨ «لا يشكّل خطراً، بل حماية لإيطاليا» [٨٢]. ويرى هيلتيبرانت تقسيماً للعمل خاصّاً بالموقع المركزي لإيطاليا في المتوسّط ولألمانيا في وسط القارة :

«بما أن مصالح إيطاليا هي في المبدأ متوسطية، ومصالح ألمانيا قاريّة، فإنها لا تكون متضاربة، بل متوازية.» [٨٣]

برغم ذلك، فحتّى بروز النزعة القومية الاشتراكية ليس قادراً البتّة على القضاء على أولوية البعد الثقافي للخطاب المتوسّطي. طبعاً هناك تحوّلات أليمة تغدو ظاهرة عندما تصدر في برلين عام ١٩٣٧، طبعة من «سنوات الرحلة إلى إيطاليا» لغريغوروفيوس

تضمّ النصّ مجموعاً وقد حذفت منه بعض المباحث كمبحث «الغيتو واليهود في روما»، «نظراً للظروف المعاصرة المشوّهة» (٨٤). ولكن حتّى هيلتيبرانت الذي يرى أن إيطاليا تمثّل الحضارة اللاتينية وألمانيا الثقافة الجرمانية، أمكنه التأكيد بأن تقاطع الحضارة والثقافة هاتين، هو الذي شكّل الحضارة الأوروبية، «لأنّ المكمّل أثمن من المماثل» (٨٥). وفي العام ١٩٤٠، عمد فرنر بندورف (Werner Benndorf) إلى إصدار كتاب جمع فيه نصوصاً لوصف رحلات إلى المتوسّط «البحر الأوروبي الحقّ». ويدا وقع فحواه خطيراً :

«على سواحله نعثر اليوم على ثلاث أسرٍ كبيرة من الشعوب : الهند – أوروبيين، والمنغول والساميين، الأسر الثلاث الأكثر أهمية في العالم نجدها هنا وبإمكانها أن تعيش بانسجامٍ في ظلّ مناخ البحر.»

فهو يؤكّد، بعيداً عن أي معيارٍ جيوسياسي، ومن دون امتداح الفاشستية الإيطالية أو القيود العرقية التي يفرضها التيار القومي الإشتراكي، أنّ هذا البحر لا يفصل بل يقيم الصلةَ بين البشر ؛ لا بل «أنشأ بشراً من طينةٍ مشتركة»، برغم ظاهر التباينات. وفي الوقت الذي كان فيه الألمان قد اعتادوا سماعَ وقع الأقدام في الاستعراضات العسكرية التي ترافق كلّ فتحٍ عسكري جديد، يذكر بندورف الموسيقى الرقيقة لشعوب المتوسّط :

«كان يُسمع حول المتوسّط ذلك الشجن الراعف، الحيّ، الشهواني لألحان الأغنيات.» (٨٦)

غَسَق

تشهد فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، ازدهاراً لأشكال الخطاب الإنسانوي التي تعكس محاولات التحرّر من الإيديولوجية ومن السلوك اللذين جعلتهما النزعة القومية الاشتراكية نموذجاً. ومرّة أخرى اتخذت جذور الحضارة الأوروبية مرجعاً. واستعيدت

ثقافة العصور القديمة، واليونان، وروما، والمسيحية بوصفها نقاط ارتكاز. وولّى الزمن الذي اضطرّ فيه بول إيغون هوبنغر (Paul Egon Hübinger) إلى نشر ترجمته لكتاب «محمّد وشارلمان» لهنري بيرين تحت عنوان «نشأة الغرب» (Geburt des Abendlandes)، في أمستردام، لأنه عمل يقلّل من دور الشعوب الجرمانية في تقويض الإمبراطورية الرومانية. وإذا كان هذا النوع من المطبوعات الصادر عام ١٩٤٠ خطير سياسياً في ألمانيا، فإنّ نهاية الحرب ستعكس الأوضاع تماماً. حيث يسود البحث عن الروابط المتوسطية. وبعد أن تحوّلت المدن الألمانية إلى رماد، فسوف تؤدي أعمال القصف الجويّ خلال الحرب إلى إظهار آثار الإمبراطورية الرومانية في حُفَرِ القنابل. فانطلقت موجة من التنقيب أدّت، كما جرى في كولونيا، إلى اكتشافات مذهلة. غير أن من لا تتوفّر لديهم مثل هذه الصروح الأثرية سيشاركون أيضاً في عملية إعادة الاكتشاف تلك. وعادت حركة السفر من خرائب المدن الألمانية إلى آثار المتوسّط إلى سابق عهدها. وعلى الرغم من أن مشروع المهندس هرمان زورغل (١٨٨٥–١٩٥٢، Hermann Sörgel) القاضي بتجفيف المتوسّط عبر إقامة سدود عملاقة في جبل طارق والدردنيل وإنشاء قارة، بهذه الطريقة، هي «أطلنطروبا» التي تجمع بين إفريقيا وأوروبا لصالح العرق الأبيض لمواجهة النفوذ المتعاظم لأميركا وآسيا، لن يجد مكاناً له إلاّ في حجرة الخوارق، فإنّ السعي لتحيين الميراث الإنسانوي للمتوسّط ليس سوى استحضارٍ لماضٍ في ظلّ ظرفٍ من الاستسلام ليس العسكري فحسب، بل والمعنوي أيضاً. ومع ذلك فإنّ التفكير العلمي حول المتوسّط، كما في مؤلف أرنست كورنمان (Ernst Kornemann) «التاريخ الجامع للمجال المتوسطي»، يبدو متخلّفاً، من حيث المنهجية ومن حيث المضمون، عن عصر التواريخ الجامعة المجيد، هذا إذا أغفلنا أي مقارنة بالمقاربات الجديدة لمدرسة الدفاتر (Annales) بعامّة وفرنان بروديل ومتوسطه بخاصّة.

كان الجغرافيان تيوبالد فيشر وألفرد فيليبسون – على غرار

كثيرين – واثقين من أن الحضارة المتوسطية في طريقها لأن تغدو «أكثر فأكثر، هي الحضارة الجامعة» (Weltkultur)، وإن اعترضت هذه السيرورة مقاوماتٌ، وخاصّة من قبل العالم الإسلامي (٨٧). لقد أصبح واضحاً، بعيد الحرب العالمية الثانية، بأن التاريخ الجامع لأوروبا انتهى (٨٨). إذ يبدو أن التدمير الذاتي لأوروبا بفعل الحرب، ثمّ مسار زوال الاستعمار الذي طاول المستعمرات أيضاً، كما نظم الانتداب والحماية في المتوسّط، قد أكّدت التحليل الذي كان أوزفالد شبنغلر (Oswald Spengler) صاغه خلال الحرب العالمية الأولى : إنّ الحضارة الأوروبية في حالِ أفولٍ ولن تنجو من إيقاع الحياة والموت الذي يميّز كلّ حضارة. ففي «أفول الغرب»، الصادر عام ١٩١٧ ، كان شبنغلر قد انتقد ثقة أوروبا المتغطرسة بنفسها، كما انتقد تأليه عصر كلاسيكي ؛ وكشف اللثامَ عنها :

> «نحن الأوروبيين الغربيين قد ضحّينا على مذبح "القدماء" بنقاوة فننا وأصالته، إذ تجرّأنا على الإبداع فقط بنظرةٍ موارية على "المثال الساميٍ"؛ لقد شعرنا في صورتنا لا بل ضمّناها يونانيين ورومانَ كلّما أحسسنا بنقص مثالهم في أعماقٍ روحنا أو كلّما أمِلْنا في ذلك. وذات يوم سوف يسرد علينا عالمٌ نفسي بارعٌ تاريخَ هذا الوهم الأشدّ ضرراً، تاريخَ ما أحطناه بالإجلال منذ العصر القوطي، باعتباره قديماً. هناك قلّة قليلة من المهامِ التي من شأنها أن تكون مفيدة للفهمِ العميق للنفس الغربية، بدءاً بالإمبراطور أوتون الثالث، الضحية الأولى، وحتّى فردريش نيتشه، آخر ضحايا الجنوب.» (٨٩)

يمكن اعتبار مؤلّف شبنغلر هّذا أول تحليل ناجمٍ عن تفكير فلسفي لسيرورة العولمة المعقّدة التي ستغدو، فيما بعد، مفهوماً شائعاً. كانت أوربة العالم تفترض أن هناك فاعلاً قديراً من جهة، ومن الجهة الأخرى معارك انكفاء. غير أن العولمة هي سيرورة في الاتجاهين. فإثر التركة الثقيلة للحرب العالمية الثانية والتحدّي الشيوعي في أوروبا الشرقية، جرى الاكتفاء بالشروع في أوربة أوروبا. غير أنّ سيرورة الاندماج الأوروبي التي قادها بالطبع

رجال كمثل كونراد أدناور (Konrad Adenauer) وروبرت شومان (Robert Schuman) و آلشيدي دي غاسبيري (Alcide de Gasperi) لكي يكون لأوروبا بعدٌ روحي، باتت تجري تحت راية التفكير الاقتصادي وعلى إيقاع الحرب الباردة. وما عاد الجنوب هو نقطة الارتكاز. بل أوروبا الشرقية بنظامها السياسي الذي يؤدي دور المواجه، وباتت أمركة أوروبا الغربية هي التي تحدّد التأثيرات الثقافية.

مع ذلك فإن هذه ليست هي سيرورة التحوّل الوحيدة التي يخضع لها غرب أوروبا ؛ ذلك أن البعد المتوسطي يطلّ برأسه من الباب الخلفي. فلحاجتها إلى الحفاظ على معجزتها الاقتصادية (Wirtschaftswunder) تستعين ألمانيا باليد العاملة المتوسطية. وكان متوقعاً أن يفد إليها عمالٌ، لكنّ الذين يأتون هم بشرٌ، كما سيصف أحد رجال السياسة فيما بعد «العمال المهاجرين». فالأسبان والإيطاليون واليونانيون والبرتغاليون واليوغوسلافيون والأتراك يجلبون معهم موسيقاهم ومطبخهم ودياناتهم ويمهّدون، بذلك، لثورة ؛ إذ لم يسبق لألمانيا، في تاريخها كلّه، أن كانت عرضةً، إلى هذه الدرجة، للتماس بحضارة المتوسّط المادية. في البداية يغلب الافتتان بسحر الغريب. وعندما يصل العامل رقم مليون، وهو برتغالي، يستقبله أرباب العمل برفقة كاميرات الصحافة ويمنحونه دراجة نارية بمثابة هدية. ولكن في الوقت الذي يصبح فيه عازفو الموسيقى الشعبية من الأجانب في عداد النجوم، يبقى العمال المهاجرون، ولأعوامٍ طويلة، يعاملون بما يقتضيه التسامح حيال أمرٍ واقع ولكن دون السماح لهم بالاندماج في المجتمع. ونرى أن مروحة المواقف الألمانية تتراوح من الافتتان إلى كراهية الغرباء. لذا فإنّ الميراث المتوسّطي الذي جرى تبنيه واختراعه وتنميته والذي لطالما ذُكِرَ خلال قرنين في الأدب والتاريخ والثقافة لا يعفي الألمان من الانكباب مجدداً على تعلّم ما أنجزه الراهب فيليكس فابري منذ نحو خمسمئة عام.

الحواشي

(١) Felix Fabri, Evagatorium in Terrae Sanctae, Arabiae et Egypti Peregrinationem, Konrad Dieterich Hassler 1843/1849 إصدار والطبعة الألمانية إصدار Herbert Wiegandt، بعنوان: Galeere und Karawane : Pilgerreise ins Heilige Land, zum Sinai ،und nach Ägypten 1483,، Erdmann منشورات شتوتغارت/فيينا/بيرن، ١٩٩٦ ، ص ٣٠٤-٣٠٦ ؛

(٢) Alfred Dove إصدار، Leopold von Ranke ,Sämmtliche Werke, ،Zur eigenen Lebensgeschichte, Duncker & Humblot ،الجزء ٥٣ و ٥٤، لايبزيج، ١٨٩٠، الرسالة رقم ٣٢٣، ص ٥٦٠-٥٦١؛

(٣) Henri Pirenne, Mahomet et Charlemagne , Revue belge de philologie et d'histoire, I , ١٩٢٢ ; ص٧٧-٨٦ ، والكتاب الذي يحمل العنوان نفسه، الصادر في باريس وبروكسيل عام ١٩٣٦ ؛

(٤) Alfons Dopsch, Wirtschaftliche und soziale Grundlagen der europäischen Kulturentwicklung aus der Zeit von Cäsar bis auf Karl den Groβen, جزئين، فيينا , L.W. Seidel & Sohn ,1918/1920.

(٥) Grosses vollständiges Universal Lexicon ، المجلّد ٢٠ ، العمود ١٦٥، (مادّة : «(Mittel) Meer»). منشورات هال/لايبزيج ، تأليف Johann Heinrich Zedler ، ١٧٣٩ ؛

(٦) المرجع نفسه، المجلّد ٢١، العمود ٦٠٠-٦٠٢ (مادة : « Mittellandische Meer, Mittelländ. See») ؛

(٧) Johann Joachim Winckelmann, Geschichte der Kunst des Altertums الطبعة الأولى ١٧٦٤ ، Sämtliche Werke ، إصدار J. Eiselein ، ١٢ مجلداً ، ١٨٢٥ - ١٨٢٩ ، مجلد ٣- ٦ ؛

(٨) Johann Gottfried von Herder, Saemmtliche Werke. Zur Philosophie und Geschichte. Fuenfter Theil. Stuttgart/Tübingen, Cotta'sche Buchhandlung, 1827, (Johann von Mueller إصدار), Ideen zur Geschichte der Menschheit. Zweiter Theil , ١٧٨٥ ،٢٤ ص ;

(٩) Wilhelm von Humboldt , Werke in fünf Bänden، إصدار Andreas Flitner و Klaus Giel ، المجلّد الثاني، ص ٦٥-٧٢ ؛

(١٠) العنوان Aus meinem Leben. Zweiter Abteilung Erster und Zweiter Teil يشير أولاً إلى أن للكتاب طابع السيرة الذاتية. ومنذ عام ١٨٢٩ ، صار عنوانه Italienische Reise ؛

(١١) Italienische Reise. Goethes Werke . Hamburger Ausgabe in 14 Bänden. Textkritisch durchgesehen und Kommentiert von Erich Trunz C.H. Beck, ميونيخ، ١٩٧٨، ج١١ ص ٢٨١-٢٨٣ ;

(١٢) West -Östlischer Divan, Goethes Werke. Hamburger Ausgabe in 14 Bänden. Textkritisch durchgesehen und Kommentiert von Erich Trunz C.H.Beck, ميونيخ، ١٩٧٨، ;
ج٢ ص٥٧ ؛ أنظر الترجمة العربية : جيته ، الديوان الشرقي للمؤلّف الغربي، ترجمة عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢ ، ١٩٨٠ ، ص ٥٧ و ١٩٨ ؛

(١٣) Georg Wilhelm Friedrich Hegel, Vorlesungen über die Philosophie der Geschichte. Sämtliche Werke, Hermann Glockner إصدار , المجلّد الثاني ,Friedrich Fromann Verlag, شتوتغارت - بات كانستات ١٩٧١ ، ص ١٣٠ ؛ أنظر الترجمة العربية : هيغل ، محاضرات في فلسفة التاريخ، ج١، العقل في التاريخ، ترجمة وتقديم وتعليق د. إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير، بيروت ،ط٢، ١٩٨١، ص ١٥٥ و١٥٦ ؛

(١٤) Georg Wilhelm Friedrich Hegel , System der Philosophie. Dritter Teil. Die Philosophie des Geistes. Sämtliche Werke. Hermann Glockner إصدار المجلّد العاشر، Friedrich Fromann Verlag ,شتوتغارت-بات كانستات ١٩٦٥، ص٧١-٧٢ ؛

(١٥) Siegfried Morenz, Die Begegnung Europas mit Ägypten, Artemis Verlag ، زوريخ/شتوتغارت، ١٩٦٩، ص١٣٨-١٣٩ ؛

(١٦) مذكور في
Jacob & Wilhelm Grimm, Deutsches Wörterbuch, Leipzig, 1889
مجلد ٧ ، عمود ١٣٩٦ وما يليه (مادة «Ost») ؛

(١٧) Ferdinand Gregorovius , Wanderjahre in Italien, Deutschc Buch-Gemeinschaft. Idyllen vom lateinischen Ufer, 1854 برلين، ١٩٣٧، ص ٢٤٢ ؛

(١٨) Jakob Philipp Fallmerayer , Europa zwischen Rom und Byzanz حرّره وقدّم له Bozen Verlagsanstalt Athesia, إصدار Eugen Thurner، ١٩٩٠، ص١٣٠ ؛

(١٩) المرجع المذكور، ص١٢٥ ؛

(٢٠) المرجع المذكور، ص١٣٤-١٣٥ ؛

(٢١) Theobald Fischer, Mittelmeerbilder. Gesammelte Abhandlungen zur Kunde der Mittelmeerländer. Neue Folge. B.G. Teubner, لايبزيج/برلين، ١٩٠٨، أعيد طبعه عام ١٩٢٢، ص٤٠١ ؛

(٢٢) C. Böttger , Das Mittelmeer. Eine Darstellung seiner physischen Geographie nebst andern geographischen, historischen und nautischen Untersuchungenmit Benutzung von Rear-Admiral Smyth's Mediterranean, Gustav Mayer, لايبزيج، ١٨٥٩ ;

(٢٣) Theobald Fischer, Mittelmeerbilder. Gesammelte Abhandlungen zur Kunde der Mittelmeerländer. B.G. Teubner, لايبزيج/برلين، ١٩١٣ ;

(٢٤) (شجرة النخيل في الحياة الثقافية والروحية في الشرق) المرجع المذكور، ص٥٠-٦١ ؛ (بين تيبيسا وغابس - نبذ عن أسفار في تونس الجنوبية) المرجع المذكور، ص٣٠٢-٣٣٢ ؛ وفي النصّ نفسه، ص٣١٢ ؛

(٢٥) Alfred Philippson , Das Mittelmeergebiet. Seine geographische und kulturelle Eigenart, B.G. Teubner لايبزيج/برلين، ١٩٢٢، الطبعة الرابعة (١٩٠٤ للطبعة الأولى).

(٢٦) المرجع المذكور، ص٢ ؛

(٢٧) المرجع المذكور، ص iii ؛

(٢٨) Ernst von Lasaulx , Neuer Versuch einer alten auf die Wahrheit der Tatsachen gegründeten Philosophie der Geschichte, ميونخ ١٨٥٦، ص٨٧ ؛

(٢٩) Verlag Jacob Burckhart , Die Kultur der Renaissance in Italien , Alfred Kröner، شتوتغارت، ١٩٧٦، ص٢٧٠ ؛

(٣٠) Jacob Burckhart , Weltgeschichtliche Betrachtungen , Stuttgart, Alfred Kroner Verlag , إصدار Rudolf Marx ، شتوتغارت، ١٩٧٨، ص٦-٧ ؛

(٣١) Eduard Graf Wilczek, Das Mittelmeer. Seine Stellung in der Weltgeschichte und seine historische Rolle im Seewesen, Verlag Carl Konegen، فيينا، ١٨٩٥، ص vi ؛

(٣٢) Hans F. Helmolt (ناشر), Weltgeschichte، Vierter Band. Die Randländer des Mittelmeers, Bibliographisches Institut, بحث أدوارد غراف فيلتشك، لايبزيج/فيينا، Der innere geschichtliche Zusammenhang der Mittelmeervölker, ١٩٠٠، ص٣–٤٤ ;

(٣٣) المرجع المذكور، ص٤ ؛

(٣٤) المرجع المذكور، ص٣١ ؛

(٣٥) المرجع المذكور، ص٣٤ ؛

(٣٦) المرجع المذكور، ص٤٣ ؛

(٣٧) Handelsgeschichte der romanischen Völker des Mittelmeergebiets bis zum Ende der Kreuzzüge. R. Oldenbourg, ميونخ، ١٩٠٦ أعيد طبعه في ١٩٧٣, Otto Zeller Verlag, أوسنابروك، ص v-vii ؛

(٣٨) M. Rikli, Von den Pyrenäen zum Nil. Natur - und Kulturbilder aus den Mittelmeerländern, Verlag Erest Bircher, بيرن/لايبزيج ١٩٢٦، ص٢ ;

(٣٩) Wilhelm Frank, Kreuz und quer durchs Mittelmeer, Sonntagsglocken, برلين، ١٩٠٦ Friedrich Willy Frerk, Kreuz und quer durchs Mittelmeer, PhotoKino-Verlag, برلين، ١٩٣٦ ;

(٤٠) M. Rikli , Von den Pyrenäen zum Nil . Natur - und Kulturbilder aus den Mittelmeerländern. Verlag Ernest Bircher بيرن/لايبزيج، ١٩٢٦، ص vii ;

(٤١) Meyers Reisebücher, Das Mittelmeer und seine Küstenstädte, Bibliographisches Institut, لايبزيج/فيينا، ١٩٠٢ ص v ;

(٤٢) المرجع المذكور، ص ١ ؛

(٤٣) المرجع المذكور، ص١–٣ ؛

(٤٤) المرجع المذكور، ص٦ ؛

(٤٥) المرجع المذكور، ص١٤-١٦ ؛

(٤٦) Theobald Fischer , Mittelmeerbilder. Gesammelte Abhandlungen zur Kunde der Mittelmeerländer. Neue Folge, لايبزج/برلين, B.G. Teubner, طبعة جديدة، ١٩٢٢، ص١ ;

(٤٧) المرجع المذكور، ص٤٠٤-٤٠٥ ؛

(٤٨) المرجع المذكور، ص٤٠٧ ؛

(٤٩) المرجع المذكور، ص٤٠٨ ؛

(٥٠) Alfred Philippson, Das Mittelmeergebiet. Seine geographische und kulturelle Eigenart، الطبعة الرابعة، لايبزج/برلين ، ب. غ. تويبنر١٩٢٢ ، ص٣ ؛

(٥١) المرجع المذكور، ص١٩١ ؛

(٥٢) المرجع المذكور، ص١٩٣ ؛

(٥٣) المرجع المذكور، ص١٩٥ ؛

(٥٤) المرجع المذكور، ص ١٩٦ ؛

(٥٥) المرجع المذكور، ص١٩٨-١٩٩ ؛

(٥٦) المرجع المذكور، ص٢٠٢ ؛

(٥٧) Ewald Banse, Die Atlasländer (Orient 1), B.G. Teubner, لايبزج ١٩١٠، ص١ ؛

(٥٨) المرجع المذكور، ص٣-٤ ؛

(٥٩) Ernest Troeltsch , Der Aufbau der europäischen Kulturgeschichte, صدر أولاً في: Schmollers Jahrbücher، مجلد ٤٤، ١٩٢٠، ص ٦٣٣-٦٨٠. Gesammelte Schriften، ٤ أجـزاء، الجزء الـثـالث ؛ Der Historismus und seine Probleme, J.C.B Mohr, (Paul Siebeck) توبينغن، ١٩٢٢، ص ٦٩٤-٧٧٢، وهنا ص ٧٠٧-٧٠٨ ؛

(٦٠) المرجع المذكور، ص٧٠٨ ؛

(٦١) المرجع المذكور، ص٧٢٦ ؛

(٦٢) Carl Heinrich Becker, "Der Islam im Rahmen einer allgemeinen Kulturgeschichte", in Islamstudien. Vom Werden und Wesen der

islamischen Welt, ١٩٢٤ ،لايبزج ;
Georg Olms Verlagsbuchhandlung, Hildesheim طبعة جديدة
١٩٦٧، مجلد ١، ص٢٤–٣٩، ص٢٦ ;

(٦٣) المرجع المذكور، ص٢٤–٣٩، ص ٣٠ ؛

(٦٤) نفسه ؛

(٦٥) Ernst Troeltsch , Gesammelte Schriften ، أربعة أجزاء، الجزء الثالث
Der Historismus und seine Probleme , J.C.B. Mohr : (Paul Siebeck)
توبينغن، ١٩٢٢، ص٧٢٧ ؛

(٦٦) Hans F. Helmolt (ناشر), Welgeschichte. Vierter Band. Die Randländer des Mittelmeers, Bibliographisches Institut, لايبزيج/فيينا
١٩٠٠، ص٨ ;

(٦٧) المرجع المذكور، ص١١ ؛

(٦٨) Theobald Fischer , Mittelmeerbilder. Gesammelte Abhandlungen zur Kunde der Mittelmeerländer, B.G. Teubner, لايبزيج/برلين
١٩٠٥، طبعة ثانية نقّحها ألفرد رول (Alfred Rühl)، ١٩١٣، ص٤٠٤–
٤٣٤ ، ص٤٠٥ ؛

(٦٩) المرجع المذكور، ص٣٣٣–٣٥٧ ؛

(٧٠) المرجع المذكور، ص٣٣٣ ؛

(٧١) المرجع المذكور، ص٣٧٥ ؛

(٧٢) المرجع المذكور، ص٣٧٤ ؛

(٧٣) Paul Herre, Weltgeschichte am Mittelmeer. Akademische Verlagsgesellschaft Athenaion، بوتسدام، ١٩٣٠، ص٢ ؛

(٧٤) المرجع المذكور، ص٣ ؛

(٧٥) المرجع المذكور، ص٢ ؛

(٧٦) Hans Hummel/Wulf Siewert, Der Mittelmeerraum. Zur Geopolitik eines maritimen Grossraumes, Kurt Vowinckel Verlag, هايدلبرغ/برلين
١٩٣٦، ص ٨–٩ ;

(٧٧) المرجع المذكور، ص٣٢ ؛

(٧٨) Meyers Lexikon, Bibliographisches Institut, الطبعة الثامنة, لايبزج، ١٩٣٩
مادة «Mittelmeer» الجزء السابع، العمود، ١٤٦٨-١٤٧٣ ؛

(٧٩) Martin Hürlimann , Das Mittelmeer. Landschaft , Baukunst und Volksleben im Kreise des Mittelländischen Meeres, Atlantis - Verlag , برلين/زوريخ، ١٩٣٧، ص v ;

(٨٠) Philipp Hiltebrandt, Der Kampf ums Mittelmeer, شتوتغارت ١٩٤٠، ص v ;

(٨١) المرجع المذكور، ص٢-٥ ؛

(٨٢) المرجع المذكور، ص٥١٣ ؛

(٨٣) المرجع المذكور، ص٥١٦ ؛

(٨٤) Ferdinand Gregorovius, Wanderjahre in Italien, Deutsche Buchgemeinschaft, برلين، ١٩٣٧، ص ٦٥٥ ;

(٨٥) Philipp Hiltebrandt, Der Kampf ums Mittelmeer, شتوتغارت ١٩٤٠، ص٥١٦ ;

(٨٦) Werner Benndorf (ناشر) Das Mittelmeerbuch, A.H. Payne Verlag, لايبزج، ١٩٤٠، ص٦-٨ ;

(٨٧) Theobald Fischer , Mittelmeerbilder. Gesammelte Abhandlungen zur Kunde der Mittelmeerländer. Neue Folge, لايبزيج/برلين B.G. Teubner, ١٩٠٨، طبعة ثانية، ١٩٢٢ ، ص١٢ ;

(٨٨) Theodor Schieder (ناشر), Handbuch der europäischen Geschichte, شتوتغارت, ج١, Ernst Klett Verlag, ١٩٧٦، ص١١ ;

(٨٩) Oswald Spengler, Der Untergang des Abendlandes, C.H. Beck, ميونيخ، ١٩٩٧، الطبعة الأولى ١٩١٧، ص٤٠ ;

فولفغانغ شتورش

رسالة إلى الشاعر أدونيس

ترجمه عن الألمانية جورج كتورة وجورج تامر

عزيزي السيد أدونيس،

دعاني السيد تيري فابر لأكتب حول فضاء البحر المتوسط، أي عما يعني ذلك بالنسبة لي بوصفي ألمانياً. يلامس هذا ما سبق لنا أن تحدثنا عنه قبل سنوات ثلاث في برلين. اسمح لي أن البي الدعوة، كاتبًا إليك.

بدأت حياتي حين تعرضت أوروبا للدمار بفعل إرادة الإفناء التي مارسها أدولف هتلر، وحين كانت ألمانيا عرضة للدمار بفعل الإجراءات التي اتخذها الحلفاء. كانت مدارسي رحلات قادتني فيها والدتي عبر أوروبا. في أعياد الفصح كنا نرتحل نحو الجنوب وفي الصيف نرتحل باتجاه الشمال. وأنى تواجدنا كنا نلمس أثار الجيش الألماني وأجهزة الاستخبارات (الغستابو).

إبان فترة إعادة الإعمار كان البحر المتوسط «مهد عالمنا». وكان من الواجب أن نعاود استحضار الأصول، وأن نعيد إيجاد المقياس الذي وضعه الإغريق. ثم كانت «رحلات الدراسة للأكاديميين الألمان» محاولة إستجابة لذلك، إذ تم تنظيم رحلات استجمام إبان عيد الفصح. نحن الآتين من مدن مدمرة رحنا نتجول وسط الحفريات. ما علمتني إياه الثانوية هو أن أجعل اليونانية واللاتينية نصب عيني. في الأولمبيا، ولم أكن قد تجاوزت الثانية عشرة من عمري، التقيت بعلماء آثار ألمان. وكانوا ينتشلون لتوهم قدراً نحاسياً. قالوا: ربما كان قدراً من صنع فيدياس حيث قد صور- ودلّوا على القدر – عتبة بيته. هنا قررت أن أصبح عالم آثار.

ذات يوم وجدت نفسي في إحدى الواحات، ورحت أتأمل عمالاً يعملون في الأرض، منغمسين بصبر كامل في عملهم في حمى شجرات البلح العالية. كانت هذه واحة طبرق بالقرب من طرابلس في ليبيا المحتجة على أوروبا بعد الغزو الاستعماري الإيطالي لها،

بعد انتهاء حملات رومل العسكرية. هنا ولأول مرة وجدت نفسي، أنا البالغ الآن الخامسة عشرة من عمري، في عالم آخر وفي زمان آخر. هذا من دون أن أكون متحضراً لذلك إلا عبر كارل ماي ومن خلال الجزء الأول من كتابه «عبر الصحراء». تابعنا السير فيما بعد نحو تونس، حيث يحاكي مجرى الشاطئ هنا اليد المبسوطة التي يحيِّي بها الملاكُ العذراءَ مريم. كما لو أن باستطاعة هذا البلد أن يتلقف المتوسط بأكمله، أن يحمله، في الوسط ما بين الشرق والغرب. قبل الوصول الى بنغازي أُعلِمنا بمنعنا من الرسو فيها. وفي صفاقس أعلنت الجريدة عن وصولنا : إنها الباخرة الأولى في رحلة عيد فصح – أربعة عشر عاماً بعد الحرب. في بهاء القيروان، تحت مئذنة جامع، تشع باللون الأزرق والأخضر والبرتقالي، بلغ البحر المتوسط ملأه.

ثم توجهنا نحو صقلية، إلى الأراضي الريفية السامقة التي تصعد وتنزل آخذة تعرجات البحر المستسلمة لنمط يطيع الإتنا. نمط يجد نفسه أسير سجسطا كما في مدرجات مسرح يوناني وصعوداً حتى معبد غير مكتمل فوق مرج يأخذ بالانحدار أمام كتلة جبلية سامقة توضح بدايته وترسم شكله. في باليرمو، المدينة الغارقة في ظلال طرازها الباروكي الغامق، صدف لي لأول مرة أن حدثتني امرأة، أمام مدخل بيت يطل على المرفأ. حينها كنت قد بلغت السابعة عشرة من عمري.

عن المعبد في سجسطا كتبتُ ما خولني اجتياز المرحلة الثانوية. ثم كان أن توجهت في دراستي نحو المسرح. الدرس الأول لقنني إياه في دلفي الأستاذ الهرم أرثر كوتشر، مؤسس علم المسرح، وهو يلوح بعصاه – مغتاظاً، لأني سألت عما إذا كان من المحتمل أن الممثلين قديما كانوا أيضا يقومون بالعمل في الأوركسترا، فيما يملأ جوق المنشدين مقدمة الخشبة.

أعود لتوي من الحديقة. لقد شذبنا أغصان إكليل الجبل ، وقمنا بزراعة الأغصان، واحدًا تلو الآخر، في الأرض على طول الطريق

المؤدي الى الغابة الصغيرة، بفاصل نصف متر بين الغرسة والأخرى.

قادتني الدرب إذاً بعد إنجازي المرحلة الثانوية إلى المسرح. هذا ما اختاره لي أستاذ اللغة الألمانية، وقد وُجِّه له بسبب ذلك الاتهام، بأنه خضع بذلك لميولي. توجهت نحو المسرح لا لرغبة عندي في الظهور على الخشبة، بل لحبي للأوبرا، وبشكل خاص لأعمال ريشارد فاغنر، وما تلاها من أعمال، أي لحبي رواية القصص. أما الموسيقى – فكانت المناظر الطبيعية كما سبق لي أن عاينتها بين تروندهايم وأسوان، وفيها ومنها يعيش الناس، ثم إنها المناظر الطبيعية عينها التي تؤثر في الناس، كما يتوجب اكتشافها، وإبرازها على الخشبة.

أفرد المسرح في ألمانيا لنفسه حيزاً في المجتمع باعتباره مكاناً للتفاهم السياسي. أساسه نصوص تعود الى الزمن الذي توجب أن تتحول فيه البلدان الألمانية الى أمة واحدة، وكان ذلك بتأثير الثورة الفرنسية. هذه أظهرت نفسها رومانية الطابع : فكان اليعقوبيون ذوي نزعة جمهورية - رومانية قديمة، والوريث نابليون ذا نزعة قيصرية. في مقابل ذلك أظهر الشعراء والفلاسفة الألمان مثال المدينة الإغريقية، جماعةً تتكون بواسطة تحمُّل المسؤولية المتبادلة، وتحتاج الى المسرح منتدىً لها. وقد تمت مواجهة الأساطير، من أجل أن تُستخرَج من الصيغة الدائمة التجدد للصراع المأساوي القوى والطاقات التي كان على الجماعة أن تواجهها الآن.

بعد الحرب العالمية الثانية كان لا بد من استعادة ما قام هتلر بافنائه. من الأرشيف وجبت استعادة ما كان موجوداً في العشرينات، بعد الإنهيار الأول الذي حدث عام ١٩١٨، من علم واستفزاز وطوبى وتعقل. لقد كان للمداخلات الحادة في جمهورية فايمار مكان في الشارع وفي المسرح. وكان على المسرح أيضًا أن يعمل على استحضار ما محته النازية. حركة عام ١٩٦٨ السياسية

بدأت فعلاً عام ١٩٦٣ بعرض مسرحي وثائقي حول التعاون بين هتلر والبابا بيوس الثاني عشر.

لقد كان على المسرح في ألمانيا أن يعمل على منح من قتلهم الألمان صوتاً وجسداً، هؤلاء الذين لم يكن بإمكانهم عرقلة الطريق نحو ستالينغراد أو نحو أوشفتيز: «ما نحتاجه هو المستقبل، لا تأبيد اللحظة»، هذا ما أوضحه هاينر مولر، «علينا أن ننبش الموتى مرة تلو مرة، إذ منهم فقط بإمكاننا أن نستخرج المستقبل». أو هم سيلحقون بنا، تماماً كما تريد النفس اللحاق بنا في الليل.

ينتظر الموتى عند المنحدرات المقابلة

أحياناً يمدون يداً باتجاه الضوء

كما لو كانوا أحياء. إلى أن ينسحبوا تماماً

إلى عتمتهم المعتادة، العتمة التي تعمينا.

واجهة المسرح مكان للعودة. وهو، الذي كان آخر أساتذتي وأولهم، كان يعتبر النصوص التي كتبها حواراً مع الموتى.

نصوص من أجل انتشال روز لوكسمبورغ من قناة لاندفير (Landwehrkanal). نصوص في البحث عن إنغه، زوجته، التي طمرتها الأنقاض في الأيام الأخيرة من الحرب ولم يُعثَر عليها إلا بعد ثلاثة أيام. زوجته التي جال معها ليتعرف على الناس الذين كانت تسألهم أن يرووا لها قصصهم. هذه التي زارها الموت مرة ثانية حين خضعت الجماعة الجديدة بعد الحرب للقوانين القديمة. لقد وجد لغتها ليستطيع الحديث عن مطموريتها، عبر قصائد، لم يحسن قراءتها إلا بعد أن وجدت هي طريقها إلى الموت.

عام ١٩٥٩ ظهر الكتاب الرائع «مهد عالمنا». كان رودولف بني الذي كبر في ظلال جبال الروكي قد قام بتصوير المدن القديمة الواقعة على المتوسط داعياً الأصدقاء لكتابة نصوص لهذه الصور. اختار جان كوكتو الصور المتعلقة بوادي النيل وكتب

معلقاً : «أتمنى لصورك الرائعة أن تحمل متأملها ليتجاوز ما فيها من طرافة، ويدرك أن إضرام النار في مكتبة الإسكندرية لم يكن فقط عملاً قام به روماني حاقد، بل كان أيضاً قضاء وقدراً حكيماً، يدفع بالناس المشغوفين على مر القرون، لينسوا علمهم ويبدؤوا من جديد، انطلاقاً من نقطة الصفر، من الموت».

كان كوكتو يبحث عن ألمانيا، كان بحاجة لها، «لأنها بما لها من إرث ميتافيزيقي وما ـ بعد ـ نفسي» كانت «قادرة على تتبع طرق روح فرنسية، لم يكن قادراً على أخذها من دائرة الموسوعيين الضيقة». وهو الذي اعترف عام ١٩٥٢ بعد رحلة قام بها عبر ألمانيا : «في ألمانيا تجرأت على أن أفتح قلبي فاضحاً بعض أسراره من دون حياء». قبل عقد من ذلك كانت ألمانيا حاضرة في بلده لكن بوصفها قوة دمار وقتل. أما الآن، فبواسطة أناس نظّموا الموت، وأيضا بواسطة أناس قد صاروا أسرى نظام الموت، فباتوا ينتظرون أن يعترف بهم من كانوا أعداء لهم، وأن يكون بمقدورهم العودة إلى الحياة، إذا أتيحت لهم الفرصة لذلك.

أما أورفيوس الذي خلقه كوكتو فقد استبدت به أميرته، التي كانت موته ايضاً. لقد أراد أن يعلم ما كان غير معلوم. أوريديك لم يعد يحبها. أما الأميرة فقد أغرمت به، وهو الباحث عنها. «غرفة النوم الليلية. موت أورفيوس عند موضع قدم السرير في صورة مكبرة. أعين مرسومة فوق أجفانه. صوت الكاتب : وفي كل يوم يأتي موت أورفيوس إلى الغرفة». إنه جواب على برونهيلد : «سيغموند أنظر إلي !» إنه إسقاط لإعلان الموت أو بالتحديد لانتظار برونهيلد، بأن يبدأ عصر جديد مع سيغموند. الأميرة تعاقَب مثل برونهيلد. إنها تتجاوز «سلطاتها»، «إذ تتصرف مع الزمن على هواها»، وهكذا، ويسبب هذا الخرق لدائرة الأسرار، فهي تدان في عالم لا يمكن للتصور الإنساني إدراكه».

لقد أحب كوكتو بيت شعر لمالرميه يتحدث فيه عن الطريق، عن صيرورة الشاعر :

كما تحوله الأبدية أخيراً إلى ذاته.

وكان يقول: «على الشاعر أن يموت موتات متعددة، من أجل أن يولد»

صعوداً على درج الفناء أجد الهرة كاتينكا أمام برج الحمام. تشم أوراق اللبلاب التي توفي بينها أمس الهر موريتس. لها منه ولدان، يشبهانهما. البنت تشبه الأم والابن الأب. إني أسمع معارك الهر في الأسفل، في الفناء. فعلى الابن، وعمره سنة وربع السنة، أن يرى كيف يحفظ مكان الأب.

لقد كان جوابُ هولدرلين على الثورة الفرنسية الثورةَ باعتبارها عملية التحول والتجدد الضرورية. لقد أحب وطنه، والأرض والطبيعة. لا بد للوطن من الثورة، ليصبح ما هو عليه وما عليه أن يكونه مجدداً.

أُعطيَتِ اللذةُ الكبرى للناس،
ليجددوا شبابهم بأنفسهم.
ومن الموت المطهِّر الذي اختاروه لأنفسهم في الوقت المناسب
تنبعث الشعوب، كما أخيل من ستيكس [نهر في جهنم].
آه، أعطوا ذاتكم للطبيعة، قبل أن تأخذكم هي !
أنتم تتعطشون منذ زمن طويل لما هو غير مألوف
وكما من جسد مريض، تتوق روح أغريجن للخروج
لتخرج من الأوضاع القديمة الصعبة.

لقد افتتحت «أغاني مهيار الدمشقي» بهولدرلين، منتظرًا إياه، بكلمات من صياغتك، وهو الشاعر، وكأنه أخ لمهيار، ورددت بيتاً من مقطوعة، يتأمل فيه في اللحظة التي يخرج الشاعر فيها من الفردوس :

«لماذا لا تكفينني أيتها الشمس الجميلة ؟

يا أزهار أزهاري في شهر أيار

هل لي أن أعرف ما هو أرقى ؟

آه، لو كان بإمكاني أن أكون كالأطفال !

لو أني أستطيع كالبلابل

أن أغني فرحي بنشيد لا قلق فيه !

إنها اللحظة التي تنمو فيها القوة في الشاعر، إذ يذكِّر الناس، كما لو كان رائياً، بما هو أصلهم، لئلا يصبروا على ما ينزل بهم. هذا لأنه خبر آلام البشر، فهو يبحث لنفسه عن الموت ليركن إليه، ليهبط إلى العالم السفلي حيث يجد صوته، إذ إنه يحب. إن العائد هو الذي يأتي من المستقبل.

أصحيح ما أحاوله في وصفي اختيارك لاسمك. لقد اخترته وكنتَ يافعاً، لك من العمر سبعة عشر عاماً، كحلم كنت تسمع عنه : «كم يجب ان يكون جميلاً، كيف قتله الخنزير البري وكيف يقوم من الموت في ربيع كل عام». أدونيس، الألوهية السورية، دخل الميثولوجيا الإغريقية باعتباره حبيب أفروديت التي نزلت إلى عالم الموت من أجله لتعيده إليها، الذي حظي أيضًا بحب برسفون، فهو مدعوٌّ إلى العودة ومسلَّمٌ للموت في آن. فيه يتجلى أرفيوس العاشق، مسيرته نحو عالم الموت، إيجاده أوريديك التي كانت صوته باعتبار ذلك كله الصورة المقابلة للشاعر مرفوعةً.

عاشقاً، انزل المنحدر

حجراً في عتمات الجحيم

ولكني أشع

هكذا تبدأ قصيدتك عن أرفيوس، وهو يعرف نفسه :

أنا صوت إلهٍ آتٍ.

أسمع أزيز طائرة مقاتلة، فوق الغيوم تحلق باتجاه الشرق. في معسكر داربي بين بيزا والبحر أقام الجنود الأميركيون معسكراً لهم. وعلى أرض المطار تجثم الطائرات القاذفة للقنابل. في الشوارع نجد لافتات تقول: «يزرعون الموت ويقولون إنهم يحملون السلام». لم تدم الحرب ضد يوغسلافيا أكثر من ستة أسابيع. تسعة من طلاب المسرح في معهد الفنون في دوسلدورف كانوا قد وصلوا. ومن بينهم آنا التي صادف أن غادرت بلغراد عشية بدء الحرب. كل مساء، وكل صباح كانت تنتظر اتصالاً من صديقها في بلغراد. الموضوع الذي تطرق إليه صفهم كان أرفيوس لمونتيفردي.

حين أتيتُ إلى بيروت في ديسمبر (كانون الاول) تعرفت على أسعد خير الله. سألته عنك. أشعَّت عيناه. فهو قد بحث أيضاً عنك ذات مرة عام ١٩٥٦، حين انتقلت من دمشق الى بيروت. كان في غاية التعجب لأن قصائد الحب التي كتبتَها لم تكن تعني أحداً غير زوجتك. لقد بقيت – واعذرني إذا قلتها هكذا – في عز الشباب، كما وجدك هو حينذاك.

عام ١٩٦٧ رأيتُ بيروت لأول مرة، قبل ستة أسابيع من حرب الأيام الستة، وكنت في رحلة شهر العسل. غيزلا وأنا كنا في طريقنا من إيران عبر البصرة، أور، بغداد والموصل – طريق ابراهيم – باتجاه اللاذقية وحلب ثم بلغنا المدينة الزاهية على المتوسط، لقد بدت لنا كأوروبا، كرأس جسر. عن هذا الشاطئ قام زيوس بخطف ابنة الملك حاملاً إياها على ظهره، منتقلاً بها عبر الأمواج إلى جزيرة كريت. لم يكن اسمها وحده هو ما أعطته لقارتنا.

إلى هذا الشاطئ وصلت أيضاً ايتيل عدنان – كان ذلك في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، وكان والدها فارق الحياة – كانت تبحث عن كيفية تبدأ بها حياتها. «لقد أحببتُ البحر، لا بسبب السباحة فقط، بل حبا به نفسه. الألوان والحركة

كانت تنومني مغناطيسياً. ذات يوم بدأت أكتب قصيدة عن البحر، ثم أصبحت القصيدة قصيدة طويلة سميتها «كتاب البحر»، قالت : «قصيدة عن البحر وعن الشمس وعن زواجهما الكوني». ثم تركتْ بيروت وحلت في باريس. نزلتُ الى الشاطئ ظهيرة يوم مشمس من شهر كانون الأول، وعند المنحنى البعيد رأيت أزواجاً ثلاثة من العشاق.

جعلت الحرب التي دامت خمس عشرة سنة من المدينة مدينة قفراً. وبعد سنوات خمس على انتهائها ما زالت آثار الحرب بادية في كل مكان. القوات السورية تراقب الشوارع عبر النوافذ، من بيوت أصابها الخراب. أما جنوب البلاد فهو تحت احتلال القوات الإسرائيلية، التي تحمل، على ما روى أحمد بيضون، التراب على الشاحنات وتنقله بعيداً. أما الفلسطينيون الذين حُرِموا من الوظائف المدنية، فهم يعيشون في مخيمات في ضواحي المدينة. إلا أني أشعر بوجود قوة تتنامى، أرقب الناس في الشوارع، ألتقط نظراتهم، أسمع همس أحاديثهم. ترغب المدينة في أن تعود إلى ما كانت عليه قبل الحرب. وقد وصف الياس خوري كيف أن تدمير إعادة البناء يتبع التدمير الذي سببته الحرب. لتكون مدينة المستقبل ، تُسْلَبُ بيروت من ماضيها، وتقوّضُ المدينة القديمة. الأبنية الفرنسية التي تعود إلى الحقبة الاستعمارية، وما فيها من زخارف شرقية، في طريقها للاختفاء. بواخر تغرق، أمام الأبعاد الأميركية التي لناطحات السحاب، وقد تضاعف ارتفاعها عما رأيتها عليه سابقاً. أما أعمال البناء فهي تزيد عن أعمال البناء في برلين التي قيل فيها إنها ورشة أوروبا الكبرى. سواء كان ذلك ناجماً عن الرأسمال العالمي الذي يستثمر في بيروت أو القرارات السياسية التي تتجاوز المواطنين، فالمدينة فيها القوة اللازمة من أجل تجدّدها.

أما برلين، وهذا ما أخشاه، فهي لا تملك هذه القوة. فهي مدينة ظلّت لقرون طويلة خاضعة لسيطرة الأشراف المُلاك. ولم تصبح

مركزاً إلا بعد الثورة الفرنسية، ومن ثم فُرِضَتْ عاصمة لألمانيا، مما يفوق طاقتها، إذ ليس لها ماضٍ. الآن أصبحت مركزاً في أوروبا. وبات عليها أن تسير درب الوحدة الألمانية الطويل. هذه الوحدة التي فرضها الألمان في الشرق، صارت بالنسبة لهم استيلاء عليهم، تبعه الانتقاء وحرمان العديد من فرص العمل. ربما أتيح لك أن تتتبّع – في نصف العام الذي كنت فيه ضيف معهد الدراسات المتقدمة في برلين – كيف شغلت مسألتان اثنتان النقاشَ الدائر في أوساط الرأي العام، أحدهما : أي بناء يمكن ان يقام في المكان الذي كان يقوم عليه القصر قبل أن يتهدم بفعل الحرب، وحيث ينتظر الآن، فارغاً منذ سنوات، قصرُ الجمهورية ساعة هدمه. لم يستقر الرأي بعد على شيء بالنسبة لهذا المكان وسط المدينة، وسط البلاد. ثمة فكرة تؤخذ بعين الاعتبار، وهي إعادة بناء القصر. وليس ثمة أي تصور فيما يختص بالجهة التي ستستقر في الصرح المعاد بناؤه.

في ألمانيا، لا مجال لطرح السؤال عن الوسط أو المركز. برلين لم تكن أبداً وسط ألمانيا، وبالتالي لا يمكن لوسط برلين الآن أن يكون وسط ألمانيا. آخن كانت وسط مملكة شارل الكبير، الذي راح ينتقل من قصر ملكي الى قصر ملكي آخر. أما وسط الإمبراطورية الرومانية المقدسة للأمة الألمانية فكانت روما، علماً أن روما كانت مدينة البابا. ما توصل إليه شارل الكبير معتبراً إياه حلاً وسطاً كان يعني إشعال حرب بين القيصر والبابا استمرت لعدة قرون. وقد أراد فردريك الثاني تجديد المملكة المقدسة باعتبارها مملكة رومانية واعتبر نفسه أغسطسَ جديداً وحاول حل مشكلة الحل الوسط الذي أتى به شارل الكبير، فاعتبر أن عبارة «الامة الألمانية» مقدمة تعني إمبراطورية رومانية للأمم الاوروبية : وذلك تجاه العالم العربي الذي أعجب به والذي كان يحتاج إليه ليروي عطشه العلمي.

علامة على ذلك أقام فردريك الثاني قلعة دل مونتي

(Castel del monte) فوق قمة جبل في أبولين : حلقة تصل الأرض بالسماء، بناء مثمن الزوايا، يشبه التاج، بني على شكل مصباح، كان شارل الكبير قد تركه معلقاً في كنيسة آخن. أما الآن فقد بات البناء مفتوحًا، والفضاء مطلاً على عالم البحر المتوسط كمن يريد تلقّفه، على النصف الأول الذي حاول السيطرة عليه، وعلى النصف الآخر الذي أراد دعوته إليه. قصر للصيد، للصائد بواسطة الصقور والباحث والمتجول.

بعد وفاة فردريك الثاني سرت أقوال مفادها أنه لم يمت، بل انتقل الى جبل الإتنا ليعود حيناً ما فينجز العمل الذي بدأه. هذا الاعتقاد أُلصق فيما بعد في ألمانيا بجده فردريك الأول، حيث ساد الاعتقاد بأن بربروسا قابع في كيفهويزر (Kyffhaeuser) ليعيد توحيد المملكة. وبدل الشتاوفي ذي العرق الأبولي الصافي والذي ولدته امرأة نورماندية في باليرمو، ظهر الملك الشتاوفي الذي كانت أمه من أصل فلفي. وتم التخلي عن صقلية، عن الجنوب. أصبح الجبل في شمال تورنغن فوق المرج الذهبي والذي ينفتح باتجاه الغرب صوب أرض الفلف، مكان إقامة القيصر الذي سعى أولاً لإقامة الصلح بين الشتاوفرين و الفلف، وقد كان سليلهما معاً. هناك، على كيفهويزر أقيم قبل مئة عام تمثال لغليوم الثاني، القيصر الأول لمملكة القياصرة الثانية، علماً أنه لم يرد أن يكون قيصراً. التمثال يظهره راكباً جواده في اتجاه الشرق. إلى أين ؟ بعد الهزيمة التي سببتها الحرب التي تم التخطيط لها هنا، ساعدت الأسطورة، التي قُلب اتجاهها للمرة التالية، هتلر كي يتسلم السلطة.

أما السؤال الآخر الذي أثير في برلين والذي طرحته ألمانيا على نفسها فكان : كيف يمكن لنصب تذكاري أن ينصف ذكر الهولوكوست ؟ باعتبار هذا النصب نصباً يحذّر الفعلة. على الألمان أن يقيموا علامة على ما ارتكبوه، أو ما ارتكبه أجدادهم من مجازر متعددة بحق الشعوب. بعبارة أخرى : أن يقيموا علامة على ما لا يمكن التغلب عليه، ما هو بمثابة عمل يومي. تجاه الاقتراحات

الداعية لإقامة منشآت ضخمة، ولإقامة مكتبة أو أرشيف، ظهر مؤخراً من جديد اقتراح تم طرحه قبل سنوات، مفاده إيجاد الشكل الملائم للوصية الموجودة في العهد القديم : لا تقتل. في اللحظة نفسها تبعت الحكومة قراراً بالمشاركة في الحرب ضد يوغوسلافيا بمشاركة السلاح الجوي، وهي تلتزم به جوهرياً، وتود الالتزام به وتعتقد أنها تبرهن بذلك عن نفسها. جيورجي كونراد يسأل : «من يحمينا من أخطائنا الخاصة، من الشياطين التي تحاول إغراء سلطتنا ؟ من يحمينا من عدم تفهمنا للأمور، الذي نلمسه في كل جيل جديد ؟»

رسم زورباران لدير «سيدة المغارة في تريانا» لوحة تمثل لقاءً بين البابا أوربان الثاني والقديس برونو، سليل مدينة كولن، ومؤسس الرهبنة الشارترية. كان البابا، وهو أودو من شاتيليون، من تلامذة برونو في مدينة رايمز. رغم النجاح الذي حققه برونو في إدارته لمدرسة الكاتدرائية، وكانت تحتل مركز الصدارة بين مدارس أوروبا، فإنه لم ينجح، حين كان مستشاراً لرئيس الأساقفة، في محاربة الفساد في الكنيسة. كما أنه لم يحظَ بمساندة البابا غريغوار السابع الذي أراد إصلاح الكنيسة لتكسب قوة، توسع بها سلطتها العالمية. صار برونو بعد ذلك راهباً، وأسس مع سبعة من مرافقيه في جبال الألب صومعة في مرتفع شارترُز (Chartreuse) في قعر واد. كان الصمت في الصحراء هو الصوت الذي رفعه ضد الفساد وضد سياسة السلطة التي كانت الكنيسة تمارسها. حين أصبح تلميذه باباً، استدعاه إليه، فغادر برونو الدير – مما أثار تعجب رهبانه– ليتدارس والبابا كيفية مساعدته. رجا البابا أستاذه أن يكون رئيس أساقفة في منطقة دي كالابريا، ويتولى من هناك مواجهة الإسلام في صقلية. رفض برونو ذلك. اللوحة تصورهما جالسين، الواحد مقابل الآخر، يخيم عليهما سكوت تام. فكل شيء قد قيل. أوربان الثاني مصمم على متابعة إرث غريغوار السابع. زورباران يستدعي بنظرة أوربان الثاني إلى الذاكرة لوحة تيزيان لشارل الخامس، التي تفرض على

المتأمل إياها الاعترافَ به في سلطته وفي وحدته. نظرة برونو تتجه إلى الداخل، عينان عالمتان تكسوهما الندوب منخفضتان باتجاه الأرض. لقد صمم البابا على تحدي العالم الإسلامي. ثم راح يهيئ للحرب، للحملة الصليبية الأولى. بعد أن علم بحروب الاسترجاع في إسبانيا، عاد برونو ليغرق في وحدته. روجيه حاكم صقيلية قدم له أرضاً في مرتفعات كالابري، هناك في الجنوب، في الضوء فوق البحر أسس ديراً جديداً. وقد شبه برونو للأخوة المقيمين في مرتفع شارترُز هذه الأرض، لما فيها من خصب، بالجنة. هناك على حدود العالم المسيحي، بفكر واحد والمتصوفين على الجانب الآخر من البحر. اللقاء مع العالم الإسلامي الغني كان أمراً ضرورياً بالنسبة للغرب. ولم يكن اللقاء بالنسبة للبابا ممكناً إلا كحرب صليبية.

في الحرب على بلغراد استخدم الجيش سلاح الجو. الآن تهاجم المقاتلات الألمانية التابعة لحلف الناتو بلغراد. قام البنتاغون بدراسة سير المعارك العسكرية التي قادها هتلر ضد يوغوسلافيا. إن الهدف ليس مهاجمة البيوت السكنية. إلا أنه لا يمكن تحاشي إصابتها. لقد شلَّت حركة السكان، ورئيسهم يقودهم من حرب إلى أخرى. حرب ضد الجيران، وضد الناس في البيت الواحد. لقد جعل من الرجال قتلة. كيف يعودون عن أوامر وجهت إليهم ؟ قبل سنتين كنت في الجبل الأسود بمناسبة مهرجان بودفا. المدينة والشاطئ كانا يعجان بالناس ومعظمهم شباب قادمون من بلغراد لقضاء الصيف على الشاطئ بعد سنوات خمس من الحرب. وكانت موسيقى التكنو في كل مكان تنطلق من مكبرات الصوت، من الأحياء، ومن الديسكو الواقع على شاطئ الجزيرة المقابلة، وذلك حتى الصباح. كانوا بحاجة إلى استنفاد رغباتهم. أرادوا أن يكونوا فيما بينهم. وإذا ما تم أي تبادل مع الآخرين فهم غاية في اللطف، كما لو أنهم كانوا ينتظرون لقاءً لا يريدون أن يكونوا البادئين به. وحين دعيتُ العام السابق وبمناسبة الاحتفال عينه، وجدت أن الناس تغيروا – صاروا متلبدين، منغلقين. ومن مكبرات الصوت لا

تنطلق إلا أصوات الموسيقى الفولكلورية. لقد بدأ الرئيس الحرب الرابعة في بلده. ويتعرض السكان الآن لقصف القنابل. «إن الأمر يبدو كما لو أن السماء أطبقت على الأرض»، على ما يروي بيتر هندكه من بلغراد عما شهده في إحدى الليالي من مطلع شهر نيسان : «ثمة قبضة يد تهوي على مدينة عدد سكانها مليونان».

إن ما تؤسسه القنابل هو ما يتبقى

هذا ما قصده هاينر ميلر في تصحيحه لهولدرلين. أو كما في العبارة التي يقولها كونيز الناشط سياسياً في مقطع أورده برشت

لهذه الأسباب، لا عقاب، بل مساعدة.

يتساءل فيريليو– حين حاول متابعة حديثه في آب الماضي مع المرحوم هاينر ميلر : «لكن متى نصمم على العفو ؟ حيث يكون العفو السياسي ممنوعاً، لا تكون الديمقراطية موجودة، بل تسيطر الفوضى التي تهيمن على السياسة، فوضى التطهير الخلقي أو العرقي والحرب المرعبة، حرب الكل ضد الكل».

أنظروا، ها أنا أتسلق، أصعد فوق صباح بلادي
فوق أنقاضها وذراها
ها أنا أتخلص من ثقل الموت فيها
ها أنا أتغرب عنها
لأراها
قد تصير بلادي غداً

لقد تركت دمشق. «لقد أصبحت سوريا»، على ما قلت لشتفان فايدنر، «في هذا الوقت مقبرة الحرية والتفكير الحر»

وطني لم يُنجَز بعد. روحي بعيدة وإن لا أملك شيئاً

لقد بحثت في بيروت عن منتدى، ووجدته. كانت المدينة

الفينيقية ملاذاً. فينيقياً، ولد على مقربة من اللاذقية، عدت من المدينة العربية راجعاً الى البحر.

لقد أصبحت أنا والبحر عاشقين.

تعتبر أعمالك كلها بمثابة انطلاق لاختبار العالم، في محاولة للبحث عن أوديسويس. في البحث عن كلمات، عن لغة البحر، والقصيدة ليست إلا باخرة. وعلى نسق رامبو تكتب :

اختبرت ما فيه الكفاية. محطات الحياة – ايها الضجيج والرؤى !

لننطلق الآن مع هوى جديد وضجة جديدة !

تحديد رامبو «أنا هو آخر» كان جوابه على قمع كومونة باريس بمساعدة القوات البروسية وعلى ما أعقب ذلك من اعدامات. لقد اقترحتَ – كما الأفلاطونيون المحدثون – قراءة الجملة التي أطلقها ديكارت «أنا أفكر، إذًا أنا موجود» بالعكس لتكون، «أنا أفكر، إذا أنا هو آخر غير أنا.» ثم أضفت : «هكذا يقول الصوفي أيضًا. فالشعر هو كل رحيل نحو المجهول، حيث تغيب الأنا في سكرة النشوة، وتصبح المعرفة «النحن» «الهو» ـ باختصار حيث تصبح «الأنا» «لا – أنا.» إن العالم العربي الذي استعمرته فرنسا منح رامبو ما كان ناقصاً في المجتمع الفرنسي نفسه، ما قمعه هذا المجتمع. إن الارتحال نحو الشرق، أو محاولة إيجاد معبر إليه، هو، على ما كتبت : «أعمق الأسباب التي تحرك شاعريته. إن الطريق التي سلكها في رحلة حياته، طريق حياته، هي الدليل على ذلك».

لقد أحب هولدرلين بلاده، فيما آثر آخرون السفر الى إيطاليا عبر مضيق غوتارد

هناك، داخلاً جبالاً ناصعة، سيرًا إلى كومو،

أو نازلاً، كارتحال النهار، نحو البحر المفتوح،

لكن ما يثيرني أكثر هو أنت، ايها الباب المقدس !

والعودة إلى الوطن، حيث الطرق المزهرة طرقي،

الباب المقدس – بوابة إلى الأرض التي نُنْشِدُها، إنها أيضاً بوابةٌ إلى الوطن.

هذا الوطن كان يجب أن يكون جمهورية شفابية تحاكي النموذج السويسري – وأن يكون هولدرلين شاعرها. وقد وزعت المناشير والشارات في هذا الصدد. كان الشرط أن يقوم الجيش الفرنسي الموجود على الأرض بمساندة التمرد العام. إلا أن باريس لم ترَ لها مصلحة في ذلك. ففي السابع عشر من شهر آذار من عام ١٧٩٩ أعلن الجنرال جوردان من شتوتغارت أن الجيش الفرنسي سيقمع الحركة الثورية. وكان هولدرلين يعلم أن الجمهورية لن تقوم، ما دام [جوردان] حياً.

في كانون الأول ١٨٠١ ارتحل إلى بوردو ليعمل معلماً خاصاً. «سيكون علي أن استجمع نفسي في فرنسا، في باريس ؛ أترقب بفرح رؤية البحر وشمسَ الريف.» هذا ما كتبه لصديقه بوليندورف. كما كتب له ايضاً : «أنا الآن في حالة فراق. لقد بكيت زمنًا طويلا. كلفني دموعاً مريرة، إني قررت أن أترك وطني، وربما إلى الأبد. ذلك أنه ليس عندي أحب منه في العالم ومع ذلك، لن يكون بمقدورهم استخدامي. ألمانياً أريد أن أبقى، حتى لو دفعت بي ضائقة القلب والغذاء لأن أذهب حتى إلى تاهيتي.»

بعد عودته في صيف ١٨٠٢ بشهور كتب مجدداً لصديقه بوليندورف رسالة، تطرق إليها بنيامين في الأنطولوجيا التي أعدها بعنوان «أناس ألمان». إنها رسالة «تستعيد في كل كلمة من كلماتها العبارات التي ترد في أناشيده المتأخرة : اليونان والوطن، الأرض والسماء، الشهوة الشعبية والرضى. في الأعالي الشديدة الإنحدار، حيث صخور اللغة العارية تبرز للعيان في كل مكان، هذه الكلمات، وهي أشبه ما تكون بالعلامات الحسابية المثلثة، هي

«أرفع أنواع الرسم»، وفيها يفتقد الشاعر البلدان التي فتحت له مجال «ضائقة القلب والغذاء» باعتبارها مقاطعات الريف الإغريقي. إن موضوع أناشيد هولدرلين الأخيرة ليس ما هو المثال المتألق، بل ما هو واقعي وقفر، شركة الألم التي جمعته بما هو شعبي غربي، وخاصة بما هو شعبي ألماني، سر التحول التاريخي، سر استحالة الجوهر اليوناني.»

لقد عاش هولدرلين الأمر إياه الذي صادفه فان غوغ في ارتحاله إلى آرل، عاش ما يشبهه. «إن العنصر الجارف، نار السماء وسكينة الناس، حياتهم في الطبيعة ومحدوديتهم ورضاهم، أمور طالما أسرَّتني، وكما تقلّد أقوال الأبطال ، باستطاعتي أن أقول : إن أبولون قد صفعني». هذا ما كتبه لصديقه.

انتيغون أثارت حماسته، كما أثارت حماسة هيغل وشلنغ ، زميليه في الدراسة في معهد توبنجن. وحين اقتحم الباستيل، كأن صورتَها هي اقتُحِمت. لقد كان ذلك في النص وهذا ما لزم تحويله صوتاً. قام هيغل بأولى محاولات الترجمة. أنتيغون قادت هولدرلين إلى اللغة اليونانية، إلى محترَف سوفوكلس، وهوميروس وبندار وأنبدقليس. ما اكتشفه هناك كان قدرة اليونان على الاستئثار بالغريب، بالآخر، بما يريدون تعلمه، بما ينقصهم، قدرتهم على تحصيله ليصبح بذلك شيئاً خاصاً بهم. إن الاستخدام الحر لما هو خاص، هذا ما أوضحه لبولندورف، هو اصعب الأمور: «علينا أن نتعلمه جيداً كما نتعلم ما هو غريب عنا». وهو الآن يتعرف على الناس في موطنه تحت شمس الجنوب، واجداً في نمط حياتهم ما كان قد اكتشفه في النصوص القديمة. لقد ذهب إلى حيث تقوم المناوشات ضد الثورة، عند حدود فندي (Vendée). هناك أبدى اهتمامه، «بما هو عسكري متوحش، وما هو محض رجولي وما يتجلى له نورُ الحياة مباشرة في العيون والأعضاء، وما يجعل الشعور بالموت كما لو كان شعوراً بالعبقرية، وما يطفئ عطشه للعلم. بنية الجسم القوية التي يتمتع بها سكان الجنوب،

وسط أثار الروح القديمة، كل ذلك يجعلني أكثر دراية بالماهية الخاصة بالإغريق.» لقد تعرَّف إليهم في رقتهم، في طريقتهم «في اتخاذ الطبائع الغريبة والتواصل معها».

«إن المعرفة انتظار»، هذا ما كتبتَه في نص تناول رامبو، «أو إنها بالأحرى امتحان شخصي يصعب نقله لآخرين، وصفه البسيط غالباً ما يكون مستحيلاً». إن المعرفة هي ما يتحقق في ما يقابلك، ما يحدث في قدرة التعرف على الآخر، على أن يكون الدافع لذلك هو العطش لمعرفة الآخر.

الأعمال الفنية تشهد على هذا الاختبار للآخر، على امتحان ما هو خاص. إنها تحوُّل المواجهة إلى أمان، يخلق حاضراً، لا يمكن لأحد أن ينسحب منه. إن الفن هو نهاية كل التزام، إنه انفتاح الرقة التي هي الحقيقة. في طريق عودته عرج هولدرلين على باريس وشاهد المنحوتات الإغريقية الموجودة في المجموعة الجديدة للآثار القديمة. بعد قراءته للنصوص وبعد تعرفه على الناس في الجنوب أصبحت الأعمال التشكيلية هي ما جعلته «لا يفهم الإغريق وحسب، بل يفهم» ما هو الأسمى في الفن، الذي يحتفظ بكل شيء لنفسه، فيصبح الأمان بهذا المعنى أسمى أنواع الرسم.» وما اكتسبه من خبرة، انبغى إدخاله في أعماله الخاصة.

لم يفصح [هولدرلين] عن سبب تركه فرنسا بعد مضي خمسة أشهر. في العاشر من أيار تقدم بطلب للحصول على جواز سفر. في الحادي عشر من أيار، وبعد أن كان قد تخلص من المعارضة في كانون الثاني، تحول نابوليون نتيجة استفتاء إلى حاكم مدى الحياة. حصد ثلاثة ملايين صوتٍ مقابل بضعة آلاف صوت ضده. عاش هولدرلدين مرحلة إلغاء الثورة، والقضاء على الجمهورية من خلال الشعب. لقد عاش نهاية حبه. سوزيت كونتارد كانت مريضة بالسل. وفي السابع من حزيران اجتاز الحدود عند مدينة كال Kehl. في الثاني والعشرين من حزيران توفيت سوزيت.

«لقد بات ضرورياً لي، بعد ما عانيت من اهتزازات وقلاقل أصابت نفسي أن أركن إلى ما يقوي عزيمتي لبعض الوقت. وها أنا في هذه الأثناء أعيش في مدينتي.» ما كان سياحة وطريقاً صاعدة في الجبال للوصول إلى «الباب المقدس»، أصبح الآن النافذة، العمل، الطاولة، ما يجب إدخاله في أعماله، في ما تبقّى من وقت. والنافذة هذه هي الباب الذي سيقوده نزولاً إلى الأموات، إلى ديوتيما، أخته، وإلى أنتيغون، أخته. لقد بحث عنها في مقابلته المباشرة للنص اليوناني باللغة الألمانية. أنتغون التي خلقها، كما يقول جورج شتاينر، «جُبِلَت من طين الوطن». الحديث كحاضر – كجسد، صراعٌ، يمكن للكلمة أن تحضِر فيه الموت. هكذا راح يحاول أن يقود أنتيغون نحو الأعلى، صوتَها، جسدَها. ثم راح ينتظر أن تخاطبه ديوتيما.

لو أنكَ من بعيد، وبما أننا افترقنا،
ما زلت تعرفني، الماضي،
أه، يا من يقاسمني آلامي !
لكنَّا نسبنا إليك بعض ما هو حسن،

قل، كيف تنتظرك صديقتك ؟
في تلك الحدائق، حيث بعد زمن
مظلم ومريع وجدنا أنفسنا.
هنا عند أنهار العالم الأول المقدس.

إبَّان الحرب العالمية الثانية قدم جوزف بويس طياراً في سلاح الجو إلى أبولين. في فوجيا كان يوجد مستودع كبير لقطع الغيار. وفي منطقة فالو مالباسو الواقعة على الجانب الجنوبي من كارغانو كانت تجرّب الأسلحة. بويس تهرّب وراح يتسلق الجبال الصخرية من مختلف الجوانب. بالنسبة له، وهو القادم من مجرى الراين السفلي، كانت الجبال موضع إعجاب كبير خاصة في

ترابطها مع البحر. هنا عاش زمناً من التأمل. مع معرفته بما يحيط بمرتفعات سان ميشال من شعائر تقول، إن رئيس الملائكة ميكائيل قد أوصل هنا الوحي بالثقافة الأوروبية. بعد ثلاثين عاماً على ذلك عاد مجدداً إلى المنطقة عينها ووجد طريقه نحو فالو مالباسو والتقى الناس مجدداً، والأولاد الآن. شاهد حقول الزيتون المنتشرة على سفوح الجبل. لم يتغير شيء على الإطلاق. «لقد وضعت حينئذ رسم فالو مالباسو. ثمة قطعة اكتشفت في إحدى حفريات الموقع، حيث كانت المنطقة من دون شك إحدى المواقع الثقافية العريقة القدم وربما كانت يونانية. هذا ما قلته للوسيو: إذا تجوَّلتَ قليلاً، ستجد حتماً شيئاً ما. وفي أسرع من لمح البصر عثرنا في الأوحال الخشنة والمقطعة على قطعة زجاج جميلة جداً، إنها جزء من سيراميك مطلي باللون الأزرق، وربما كانت قطعة من أذن جرة، وهذا ما حمسني للاهتمام بهذا الرسم. فيما عدا ذلك لا يصوِّر الرسم أكثر من صورة ماعز بشكل متطاول، رسم أريد له ربما أن يدلَّ على هذه الثقافة، ثقافة الرعاة والفلاحين مع حيواناتهم، مع ماعزهم، مع زيتونهم، كما هي الحال حتى هذه الأيام، حيث لم يتغير شيء يذكر في هذا المجال.»

كانت إيطاليا بالنسبة لبويس بمثابة «مسبار معلَّق بالبحر، بحوض مائي والجاً فيه، حيث وُجِد مجال ثقافة الماضي بكامله على طول الشواطئ ... مسبار بإمكانه أن يكشف الكثير من الأشياء كما بإمكان أشياء كثيرة أيضاً أن تترسب فيه.» إنها بيئة طبيعية تطورت فيها مختلف الثقافات بتآلف تام مع الطبيعة. وهكذا تفصح هذه الثقافات عن نفسها مجدداً. «ما نجده هناك قد أخذ لتوه ملمحاً تشكيلياً.» تماماً كما خلقه الإغريق في منحوتاتهم. كل شيء يصبح مقروءاً في حضور شكله، قابلاً للتجربة في إجابته على ما كان مضمراً، في انتظاره لما هو قادم: «تماماً كما يعطي البحر الشكل للحجر.» «الأمر بسيط جداً، إنها الصور في كل مكان. حتى في النباتات، كأن نرى مثلاً أشجار تين أمام جدار مرمر، أو الزيتون أو الخنافس أو الفراشات، في كل مكان يبرز للعيان ترابط

مباشر بين الثقافات القديمة والطبيعة : ترابط محسوس ومقروء، كما لو كان ذلك فعلاً بمثابة وحدة كبرى.»

لماذا اخترت فولتيرا لك مكاناً ؟ سألني كلاوس هاينرش، أستاذ علم الأديان في برلين، والذي آمل أن تتاح لك فرصة التعرف إليه. ستجد فيه محاوراً جيداً بالنسبة لمشروعك في برلين حول تصورات العالم الآخر. حين قدم قبل بضعة عقود في الخريف من سينًا إلى فولتيرا، تكوَّن لديه الانطباع، على ما روى لي، أنه يدخل مكاناً، الأموات فيه حاضرون، كما لو أن الناس في فولتيرا يعيشون مع الأموات. إنهم يشبهون أجدادهم، الأتروسكيين، الذين سعوا في طقوسهم إلى الحفاظ على اللقاء مع الموتى.

كان اليوم يوم الجمعة العظيمة، حين وصلت إلى فولتيرا للمرة الأولى، وكنت في طريقي من بيزا إلى سينًا. كان يوماً تلمع فيه الأشجار بلون بنفسجي داكن، مليئة بالبراعم الآخذة بالتفتح. وكانت البلاد تعيش سحر الجمعة العظيمة. قدت السيارة صعوداً الى رأس الجبل كما لو كنت في رحلة طيران. وإلى جانبي يجلس إبني كاسبار ذو السنوات السبع. ثم وجدت المدينة صارمة، واثقة من نفسها، فخورة بنفسها ومغلقة على ذاتها. لكن البصر كان يمتد فوق المنطقة ويطال أول الإخضرار. وبوصولنا إلى الأسفل في طريقنا إلى سينًا أردنا أن نستريح. وفي منحدرات الجبل وجدت نفسي على هضبة، في غابة مغطاة بالأشواك، كما لو كانت قنفذاً. قمنا بتسلق الهضبة. وها أنا الآن وسط المرتفع أنظر إلى المنطقة عند مستوى سلسلة من المرتفعات تحيط بكل جانب، كأني على وشك الغطس. فلا أنا في الشمال ولا في الجنوب، لا في الشرق ولا في الغرب. لقد كانت الهضبة بمثابة سرّة العالم. واسمها سان مارتينو. هنا كان يتم الرقص في الأول من أيار، وما زال كذلك إلى الآن. منظر طبيعي يحيط بي من كل جانب مما جعلني أعتقد، أنه بإمكاني أن أنزل هنا، اني سأنجح بأن أعيش هنا. في الغربة، ومع ذلك ليس فيها. لقد كبرت في الأرض البافارية التي تتقدم جبال

الألب. والأرض هنا كانت القطعة البديل، بل نموذجَ أرضي الأصلية.

في السفح الجنوبي من فولتيرا وجدت بعد ست سنوات من ذلك منزلي – وتحديداً وسط هذا المرتفع. وقد قام بتجهيزه في أواسط القرن الماضي الأخوة تنغاسي من فولتيرا. لقد كان بإمكانهم بيع أعمالهم من الجص والمرمر في المكسيك. لكن بدافع رغبتهم بتحقيق شيء ما من المكسيك هنا، قاموا بترميم مزرعة قديمة. وقد قام الأسقف عام ١٨٥٨ بتكريس الكنيسة تحت اسم ماريا دي غواديلوب، شفيعة المكسيك. في هذا الوقت أيضاً انتقل فاغنر الى البندقية، إلى القنال الكبرى ليؤلف فيها الفصل الثاني من «تريستان وإيزولدْ». عام ١٩٤٣، أي في عام مولدي، قام الجيش الألماني باحتلال المنزل لعدة أشهر. وكعلامة شكر قدم الضباط لربة المنزل سجادة جدرانية مكوَّنة من قماش قديم عليه كتابات وحوافز ذات طابع شرقي مع رسوم حيوانات وعصافير. وهي الآن تستخدم غطاء لابننا الصغير. ربما كانت عملاً أنجز في صقلية. وتحت هذا الغطاء أنام أنا أيضاً. ولم أعلم ممن أتانا، إلا منذ وقت قصير.

الوصول هو الموت. هذا ما قلتَه في برلين. وهنا إلى فولتيرا أريد أن أصل أنا. انفتح المكان مثل النباتات التي تنتظر أن أترك طاولتي التي أكتب عليها. وبما أني حاولت أن أفهم الحياة هنا، فإني قد تربَّيتُ على فضاءٍ أستطيع فيه أن أعيد لقاءاتي وتركيباتٍ مما أثَّر فيَّ منذ حداثة سني. الشعور نفسه، ها أنت قد وصلت، اعتراني مراراً. اللحظة الآنية التي تخترقني، شعور بالسعادة، درجة في سلم طويل. ولادة انطونيو ماريا قبل عام ونصف غيرت الكثير من الأشياء. رأى فيها الجيران إشارة إلى أني قررت الإقامة هنا. هنا كبر ابني واكتشف العالم، حيث أكتشفه أنا أيضاً من جديد.

يمتد النظر من أسوار المدينة إلى الشمال عبر بيزا وصولاً إلى

جبال الألب، وفي البعيد مقالع الرخام في كارارا، وإلى الشرق وصولاً إلى منطقة كيانتي، وفي الجنوب عبر كولين وصولاً إلى مارِمّا، وفي الغرب إلى البحر التيراني وصولاً إلى جبال كورسيكا – عالم كبير مستدير، يوسِّعه البحر اللامع بين الهضاب. عالم يأسره البحر المتوسط. لقد بنى الرومان الاسم الإتروسكي فيلاتري (Velathri) بواسطة الجمع بين كلمتي فولاري (volare) وتيرا (terra). بين السماء والأرض معرَّضاً للريح. ويعتقد المرء بأنه يمكنه أن يترك نفسه عرضة للسقوط، فيطير كالصقور فوق المنحدرات. إلا أنه لم يكن بوسع المدينة أن تمتد نحو الأسفل. فالأرض الطينية التي تحمي مقابر الأموات لا تحتمل المنازل. في الشمال الغربي انجرف جزء من الجبل ساقطاً في الهاوية. والصخور العمودية ذات اللون الأصفر تنبئ عما في داخل الجبل.

من صخور الرخام الأبيض التي وجدها الأتروسكيون في محيط فولتيرا وفي أعماق أراضيها، وهي من الجص وإن بدت متموجة مثل المرمر، قام الأتروسكيون بصناعة الأوعية التي عادوا بها إلى الأرض، أما من الخارج فقد رسموا صورهم عليها : أجساد في حالة استرخاء، ممتدة كما لو كانت تهم بتناول الطعام، ذات رؤوس كبيرة جداً تبرز بوضوح كما لو كان أصحابها في ساحة المدينة. إنه مكانهم، إنها مدينتهم، إنها أرضهم. «هل حافظ الأتروسكيون في حياتهم على الموت إلى جانبهم، كما هي الحال في هذه الأوعية الآن ؟» هذا ما سأله ماكس بيكارد، «بحيث لا يكون الوجود في الموت بالنسبة لهم أمراً يختلف عن الوجود في الحياة ؟ إنهم يعطون الانطباع بكونهم أناساً ينتظرون العودة إلى الحياة، جاهزين في اللحظة التالية للعودة مجدداً إلى الحياة، لم ينفصلوا إطلاقاً عن الحياة، بل انتقلوا بكل بساطة إلى الجهة المقابلة من الموت التي كانت هي الجهة المقابلة للحياة.» وعلى جوانب الأوعية نجد صوراً مجنحة لنساء يقدن الموتى كما هي الحال في الشمال. لقد قام أهل فولتيرا بحفر مقابرهم في الجبل

أمام أسوار المدينة، إنها أحياء المدينة الأخرى.

لم تعرف مدينة أخرى في توسكانا الموت، ولم تعرف أعمال العنف والنهب بأشكالهما الرهيبة كما عرفته فولتيرا من قبل آل مديتشي، بأوامر صادرة من لورنزو العظيم، الذي كان بحاجة لتربة المرتفعات الغنية بالمعادن. ثم كان أن قام فردريكو دي مُنْتِفِلْترو بتحقيق ذلك ليحول مدينة أوربينو إلى مركز متألق لعصر النهضة. لقد أدَّى نهب فولتيرا إلى خض إيطاليا بأسرها. مكان الأكرويوليس والمعابد أقام آل مديتشي حصناً يقهرون به المناطق المحيطة، وما زال سجناً قائماً إلى اليوم. المدينة تحيا مع المساجين. ومعهم قام أرمندو بونزو بتنفيذ أعمال مسرحية لكل من بيتر فايس وجان جينيه، وهي تظهرهم في باحة السجن وفي ساحة المدينة. على سرير موته أسر لورنزو العظيم إلى أندريا بوليزيانو بأن نهبه لفولتيرا خطيئة لن تغتفر له، وأن جهنم بانتظاره. وحين احتفلت فلورنسا بالعام الخمسمئة لوفاة لورنزو قام اسقف فولتيرا بإقامة قداس لراحة الضحايا. ماكس بيكارد كتب: «أنه كما لو كان باستطاعة المرء أن ينحدر عائداً إلى الماضي على درجات الزمن الصاعد ببطء إلى الحاضر. كما لو كان ممكنًا إستعارة درجات الزمن الذي يصعد بطيئاً نحو الحاضر، ليعيد سقوطه نحو الماضي.»

وجدت فولتيرا شكلَها من خلال تمثال برونزي أتروسكي يعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد. وهو بارتفاع يقارب ٥٧٥ ملم: «ombra de la sera». إنه تمثال لشاب عار، تزيد شمس المغيب في طوله ثلاثة أضعاف. تمثال ينتصب بأقدام ثابتة، إنه يشبه الطفل، غارقاً في نفسه منشغلاً فيها مستمعاً إلى ذاته. حضنه آخذ بالدلالة على الجنس. يداه تمتدان على فخذيه، محيطتين بسرته وعضوه الذكري، وهو يبدو كالشمس التي تغطس في البحر، في انتظار أن تمنح له القدرة على الحب والإنجاب، في انتظار ما يمكن أن يحصل، في انتظار العرس، في انتظار عودة الشمس. وفي

صعود القوى الأرضية، مسبار غاطس في الأرض، ونحو فضاء يجب اختباره الآن. السرة تشكل وسطه. أما وسطه الجديد فهو الآن القضيب. فالأول لا يمكن أن يكون وسطاً ما لم يكن الثاني وسطاً.

إنه مثل الريح التي لا تعرف الارتداد
ومثل الماء الذي لا يعرف العودة إلى الينبوع.
يبدأ بنفسه فيخلق ما يماثله في جنسه – لا أجداد له،
وجذوره في خطواته.
يتجول في الهاوية ويأخذ شكل الريح.

أما الصورة الأخرى التي تستحضر فيها فولتيرا نفسها – خاصة في لحظة غروب الشمس – فهي صورة إنزال المسيح عن الصليب التي رسمها روسو فيورنتينو في العام ١٥٢١، بأمر من (Compagnia della Croce di Giorno) لكنيستها الخاصة في سان فرنسيسكو. خمسون عاماً بعد نهب فولتيرا. إن الألم الذي نجم عن ذلك نجده ظاهراً من جديد في هذه اللوحة. لقد فارق المسيح العالم. مريم وقد آلمها الموت تمسك بها امرأتان. مريم المجدلية، تجثو عند ركبتي مريم العذراء متمسكة ببطنها، ومحاولة تقبيله، مريدة بذلك أن تحمل العزاء للبطن الذي أنجب المسيح، الذي أكمل الآن رسالته. من الجهة الثانية نجد يوحنا، منتصباً بكل قامته، مصعوقاً يحمل رأسه بكلتي يديه، يملأ الحزن قلبه على العالم الذي قتل المسيح. تحته، بعيداً على هضبة، في نور مغيب الشمس، نجد بعض الناس من علية القوم يحملون سيوفاً، وفوقهم نجد جنوداً يحملون البلطات. ونجد يوسف الرامي منحنياً فوق خشب الصليب، مشيراً إلى مساعديه الثلاثة كيف يجب عليهم حمل السيد المسيح الميت. وقد بدى على الأربعة توتر واضح. كانت الريح تلعب بهم. ريح قادمة من العالم الآخر. جسم المسيح المسجى ميتاً بين أيدي مساعديه يرسم ما يشبه نصف دائرة، إنه بالذات الشمس الآيلة للمغيب. لون الجلد قد ذهب إلى الاخضرار وسط الرجال الأربعة

الذين يرسمون بأجسادهم وأذرعتهم وأرجلهم مدار الشمس. أحد المساعدين، وهو إلى اليسار من الصورة، يكتشف الجرح في صدر المسيح، الجرح الذي يلامسه المساعد الواقف إلى اليمين، وربما يفتحه من جديد، مشيراً إليه بيساره، مذعور النظرة، مفلتاً صرخة. نظرة يوسف الرامي نظرة مستطلعة. والدم يريد أن يسيل مجدداً من الجرح. إنها صورة المدينة في الألم، لا تجد طريقها إلى التجدد.

في الأسفل، في الفناء عند الجدار، كانت توجد شجرة تين ذات جذعين يشكلان حرف V. كانت تحمل ثمار تين سوداء ثقيلة. وكانت أوراقها تتطاير كما تطير العصافير التي تلفحها رياح البحر. في العام السابق كسرت عاصفةٌ الجذعَ الواقع إلى اليمين. وقد قمنا بتدعيم الجذع إلى الشمال. منذ أربعة أسابيع أرتني غابريلا شقاً يمتد من الارض إلى أعلى الجذع، كأن أحدهم قام بشقه بسكين. لم يرد الجذع الشمالي الحياة من دون الجذع اليميني. لقد سبق لفرنسيسكو أن قدم لي ثمار تين سوداء، ملء يديه. إنها نعمة كبيرة أن يكون هو جاري. لقد كان هو الروح في هذا المنحدر الجنوبي. ولد قبل الحرب العالمية الأولى، وترك أبروزيا بعد الحرب العالمية الثانية مع أهله وثلاثة من إخوته وأخواته الأصغر منه، حيث لم تعد الأرض تؤمن ما يكفي مؤونتهم للغذاء، ليقيم في فولتيرا. حياته، على ما يقول، لم تكن سوى حروب متصلة : في إفريقيا وألبانيا واليونان. وكأسير حرب إيطالي زجَّ به في معسكر الاعتقال في ماوتهاوزن. كان يعيش مع زوجته الثانية المولودة في فولتيرا، مع عائلة ابنه من زواج أول له. حين قدمتُ إلى فولتيرا قاموا بتكبير منزلهم. غالباً ما دعوني لتناول الطعام معهم. كان يضحك اثناء تناول الشراب ويقول : «Troppo amore». ما يشعره نحوي كان يعطيني إياه. كان بإمكان أي كان أن يحادثه، وأن يسأله نصيحة. وكنا نعلم أنه لن يروي ذلك فيما بعد. وكانت أجوبته قصيرة. أمامه كانت الأشياء بمنتهى الوضوح، ما يجب عمله كان معروفاً. بعد أن توفيت زوجته، صعبت الحياة عليه. كان يأتي ليشرب كأساً من النبيذ

الأحمر، ويفرح بلفائف جيتـان. في طريق العودة إلى البيت وقع في إحدى الحفر. أتى ابنه وأبدى غضبه، إذ أن أباه لا ينبغي أن يشرب الخمر. تفهمت موقفه. هذا ما حصل أيضاً لوالدتي حين كنت أعيش مع عائلتي، وهي كانت تعيش وحيدة. ثم راحت زيارات فرنسيسكو تخف شيئاً فشيئاً، لم يعد يملك القوة الكافية لذلك. حين توفي لم أكن في فولتيرا. لقد عاودنا الحديث عنه مراراً. إنه يحيا في الأشخاص الذين وجهوا إليه أسئلة.

حين ضرب الطاعون مدينة فلورنسا قام بونتورمو برسم لوحة توضع على المذبح في الكنيسة الخاصة بمدافن آل كابوني، كنيسة سانتا فليسيتا، وهي تعتبر بمثابة جواب على لوحة الإنزال عن الصليب التي رسمها روسو فيورنتينو. لوحة تضم في حركة واحدة الإنزال عن الصليب، والبكاء، والحزن، والدفن، والصعود إلى السماء. تسعة رجال ونساء يهتمون بمريم، يصار إلى إبعاد ابنها عن حضنها، يهتمون بالابن الذي ينتظره الآب. إن صورة الآب التي لم تعد موجودة الآن كانت موجودة على قبة الكنيسة الخاصة : اليد اليمنى تمتد نحو الابن وثمة قطعة قماش في اليد اليسرى لتنظيف الجسد من جراحه. الرجل الشاب الذي يحمل المسيح على كتفيه يدير رأسه ويرنو باحثاً في فضاء الكنيسة، كما لو كان يسمع صوت الله الذي ينتظر ابنه. لون جلد الشاب ليلكي فاتح، إنه اللون نفسه والنور نفسه كلون ثياب الامرأة التي تمد يدها باتجاه مريم بالمنديل الذي نظفت به جسم ابنها. أو أنها تحاول أن تمسح بهذا المنديل دموع مريم. ربما كان المنديل – وهو في مركز اللوحة – صورة عن النفس. تقدم الامرأة لمريم نفس ابنها. ومريم ترفع يدها اليمنى، اليد التي أخرجتها إحدى النساء من يد ابنها، مودِّعة إياه. ستبقى نفسه لديها مثل نفس أريديك التي ظلت لدى أرفيوس حين كانت تنزلق مجدداً الى أسفل، الى العالم السفلي. ويمنديل ينتظر الآب الابن.

إن الأشكال التسعة هي بمثابة شكل واحد على ما تقول الطالبة

أنيا. فهي أشكال لا يمكن ردها إلى مريم أو يوحنا أو يوسف الرامي، حتى لو أوحت بعض المظاهر بذلك . بونتورمو نفسه يظهر وسط هذه الأشكال التسعة، خلف ظهر مريم ونظراته تتجه صوب الله الآب، تائقاً إلى أن يكون خوفه المعلن من الموت ظاهراً في السر الذي رسمه، متسائلاً وخاشعاً معًا، لكونه قد تمكن من وضع هذا الرسم، إنه هو أيضاً أحد الرسل. إنها إذاً صورة العنصرة – ليس عنصرة الروح القدس. إنها تشير إلى هجوم الإلهي المفاجئ، يتمظهر في الموت بوصفه تطهراً، تأملاً، وعودة. يسيطر عليهم الألم، مأخوذين بما يوحى إليهم، في مشاركتهم الألم يصيرون رسلاً لأنفسهم، فإذا بهم رسل يذهبون إلى أرجاء العالم. وعلى نافذة إلى يمين الكنيسة رسمَ بونتورمو لوحة تمثل البشارة، البداية.

كان الجو ماطراً يوم أمس. قمت بغرس أربع من نبتات القرنفل اليابانية الأصل في الحوض حول شجرة من الزيزفون، وكانت هذه هي النبتات الأخيرة التي لم أكن قد زرعتها بعد. أضع في فمي زهرتين مكسورتي الساق، وسرعان ما يخطر في بالي عنوان حوار بيرانديلو مع نفسه «الرجل والزهرة في فمه»، وبهذا أيضاً السؤال الذي طرحته كلوديا عليَّ أمس مساء، بعد أن قرأت النص الذي كتبته حول بنتورمو : «هل تريد أن تموت هنا ؟» إلى كنيسة بونتورمو قمت باصطحابها في اليوم الأول بعد وصولها إلى فلورنسا لتقوم بزيارتي في فولتيرا. لقد رافقتنا البشارة، والنور الذي كان يتكسر على الملاك ويملأه. ثوبه وأجنحته تجعل الضوء الآخر مرئياً.

إن الألوان التي رسم بها بونتورمو ما جرى يوم الجمعة العظيمة هي ألوان يوم الجمعة العظيمة، إنه الربيع في بداية تفتحه، الألوان تشبه، بعدُ، الجذور والأوراق في بداية تحولها من خلال الضوء، من دون حماية ضد الشمس. إنه سحر الجمعة العظيمة.

أخذني أنطونيو الى البركة الصغيرة التي لم أكن قد عرفتها بعد. لقد قام دينو باستحداثها في منخفض وسط حقول غرازيانو. وفي هذه البركة وقع أنطونيو أمس، حين كان يحاول إلقاء كتل من الصلصال، وقد قامت لورا ابنة السنوات التسع بانقاذه. وها هو الآن يرمي بالصلصال مجدداً في البركة. على طاولتي صورة انا فيها في مثل سنه ممسكاً بيد والدي، وذلك على بحيرة شلاختنسي في مطلع سنة ١٩٤٥، قبل أن نترك برلين. عيناه العارفتان غائبتان. حينها كان قد تقرر نقل إنتاج V2 الذي كان عليه تنظيمه بوصف مهندساً، من بينُمند إلى مجمع دورا. وحين أعيد بناء مصانع سيمنز بعد الحرب كان والدي قد فارق الحياة. غرق في بحيرة تغرنسي بسبب نوبة قلبية. رأيت يديه وسبحت نحوهما. كان عمري تسع سنوات. وحتى الآن لا أعلم عنه إلا القليل.

اليوم هو أحد العنصرة. لقد بدأ الصيف. انصرف الطلاب منذ ما يوازي الساعتين. نور الشمس يلامس منبسِطاً الهضاب. ماريو قام بحراثة المنحدر القاسي تحت بركته بواسطة تراكتور. يخيم السكوت الآن، ولا يسمع إلا صوت العصافير. شتِفان الذي بدأ دراسة الفنون يقوم بإطلاعي على رسوم وضعها بالفحم، إنها المناظر الأولى التي يرسمها. ما نجح في رسمه كانت الدروب التي تتوجه نحو أسفل المنحدر، تحت أشجار الصنوبر، ما فتش عنه، وهو منشغل بأورفيوس، كانت الفوهات التي تؤدي إلى العالم السفلي، والدروب النازلة.

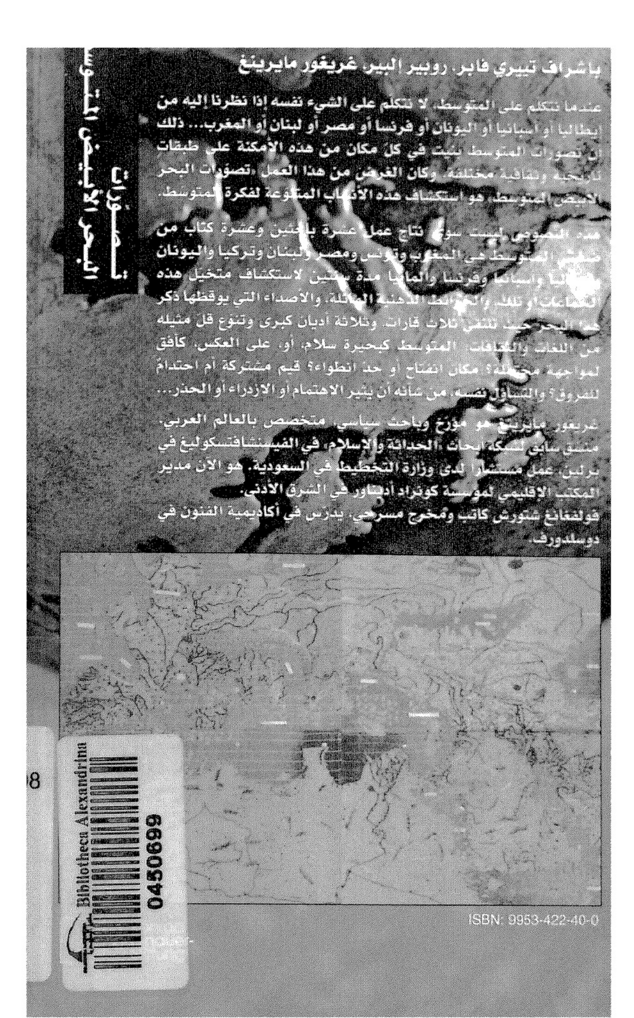
في مثل هذا اليوم وقبل خمسين عاماً تم الإعلان عن دستور الجمهورية الألمانية الفدرالية. وهو لا يسمح بالحرب، وهي تجري الآن من دون توقف. حين اشتعلت الحرب قبل شهرين كتب لي دوسان رنجاك من بلغراد : «ستستمر الغارات الجوية حتى الإبادة، هذا ما تقوله ابنتنا المقيمة في لوس انجلوس». مع انطونيو قمت بزيارة بريمو، أحد المزارعين الجيران «لا شيء يتغير»، كان يقول، «لكن كل شيء يتغير.»

أن أكتب إليك، وأن أفتكر بك، كان مبعثاً لسروري العظيم في الاسابيع الماضية. إني أشكرك لرفقتك، وأشكر تيري فابر.

لك مني أطيب التحيات القلبية

فولفغانغ شتورش

فولتيرا ٢٣ أيار ١٩٩٩



تصوّرات
البحر الأبيض المتوسط

بإشراف تييري فابر، روبير ألبير، غريغور مايرينغ

عندما نتكلم على المتوسط، لا نتكلم على الشيء نفسه إذا نظرنا إليه من إيطاليا أو إسبانيا أو اليونان أو فرنسا أو مصر أو لبنان أو المغرب... ذلك أن تصورات المتوسط تنبت في كلّ مكان من هذه الأمكنة على طبقات تاريخية وثقافية مختلفة. وكان الغرض من هذا العمل «تصورات البحر الأبيض المتوسط» هو استكشاف هذه الأبعاد المتنوعة لفكرة المتوسط.

هذه النصوص ليست سوى نتاج عمل عشرة باحثين وعشرة كتّاب من ضفاف المتوسط في المغرب وتونس ومصر ولبنان وتركيا واليونان وإيطاليا وإسبانيا وفرنسا وألمانيا مدة سنتين لاستكشاف متخيل هذه الفضاءات وتلك الخرائط الذهنية الماثلة، والأصداء التي يوقظها ذكر هذا البحر حيث تلتقي ثلاث قارات، وثلاثة أديان كبرى وتنوع قل مثيله من اللغات والثقافات. المتوسط كبحيرة سلام، أو، على العكس، كأفق لمواجهة محتملة؟ مكان انفتاح أو حد انطواء؟ قيم مشتركة أم احتدامٌ للفروق؟ والتساؤل نفسه، من شأنه أن يثير الاهتمام أو الازدراء أو الحذر...

غريغور مايرينغ هو مؤرخ وباحث سياسي، متخصص بالعالم العربي. منسق سابق لشبكة أبحاث «الحداثة والإسلام» في الفيسنشافتسكوليغ في برلين. عمل مستشاراً لدى وزارة التخطيط في السعودية. هو الآن مدير المكتب الإقليمي لمؤسسة كونراد أديناور في الشرق الأدنى.

فولفغانغ شتورش كاتب ومُخرج مسرحي، يدرّس في أكاديمية الفنون في دوسلدورف.

ISBN: 9953-422-40-0